امرأتان في امرأة



د. نوال السعداوي

د . نوال السعداوي

امرأتان في امرأة ...

رواية

دار الآداب - بيروت

اهداء

الى كل فتى وفتاة في ربيع العمر ، لعلهما يدركان قبل فوات الاوان ان طريق الحب ليس مفروشا بالورد ، وان الزهور المغمضة حين تتفتح في ضوء الشمس لاول مرة تسقط فوقها خراطيم النحل تمتص ورقها الناعم ؛ فاذا ما استسلمت الزهور انسحقت ،واذا قاومت واستبدلت الورق الناعم بشوك نافر مدبب ، استطاعت ان تحيا وسط النحل الجائع .

نوال السعداوي

مارس ١٩٧٥

الطبعة السّابعة
١٩٩٨

كان اليوم هو الرابع ،وكان الشهر هو سبتمبر ،وكانت تضع قدمها اليمنى على حافة المنضدة الرخامية ، وقدمها اليسرى فوق الارض . وقفة لا تليق على الاطلاق مع كونها امراة (لم تكن امراة بعد في نظر المجتمع) كانت لا تزال فتاة في الثامنة عشرة . ولم تكن ملابس الفتيات في ذلك الوقت تسمح لهن بأن يقفن هذه الوقفة . كن يرتدين شيئا اسمه « الجيب » يلتف حول الفخذين بشدة ويضيق عند الركبتين ، فاذا بالساقين ملتصقتان دائما ، اثناء الجلوس واثناء الوقوف ، بل واثناء السير ، لم تكن الساقان تنفصلان ابدا في حركة الخطوات المألوفة للادميين ، وانما هي حركة دورية غريبة ، تنتقل بها قدما الفتاة فوق الارض وتظل ساقاها ملتصقتين وركبتاها ملتحمتين كانما تضغط بين فخذيها على شيء تخشى سقوطه .

كانت (رغم كونها فتاة) تندهش ، وتود ان تعرف هذا الشيء الذي يمكن ان يسقط من اي فتاة في اللحظة التي تتباعد فيها ساقاها . وباستطلاع طبيعي كانت عيناها دائما تبحثان ، وتراقبان تلك الحركة الدودية التي تسير بها الفتيات .

لم يكن مظهرها يختلف كثيرا عن هؤلاء الفتيات ، سوى انها كانت ترتدي البنطلون،وساقاها كانتا طويلتين ، عظامهما

مستقيمة ، وعضلاتهما قوية ، تستطيع ان تدب على الارض وهي تمشي ، وتحرك ساقيها بحرية ، وتفصل بينهما بثقة.

دائما كانت تجد نفسها بين البنات، في مدارس البنات، وفي فصول البنات، واسمها في كشوف البنات، بهية شاهين، التاء مربوطة مضافة الى اسمها ، تربطها بقوائم البنات كاللجام الجلدي .

ولان العقل البشري عاجز عن ادراك حقيقة الاشياء، فقد اصبحت معروفة عند الجميع كبهية شاهين ، اما حقيقتها فلم تكن معروفة لاحد .

وكانوا يندهشون حينما تسير ، وتصبح هناك مسافة مرئية بين ركبتيها . وتراهم يحملقون في هذه المسافة ، فتتظاهر بانها لا تراهم ، وتواصل سيرها ، تحرك ساقيها وتفصل بينهما ، وتدب بكل قدم على حدة فوق الارض ، بقوة تدرك بها عن يقين انها ليست بهية شاهين .

ذلك اليوم بلغت الثامنة عشرة . كانت تقف وقفتها الطبيعية (الشاذة في نظر المجتمع) قدمها اليمنى على حافة المنضدة الرخامية ، وقدمها اليسرى فوق الارض . وقفة لا تستطيع ان تقفها اية فتاة في ذلك الوقت ، ولا اي فتى ايضا . فهي تحتاج الى ساقين على قدر كبير من الثقة بمرونة عضلاتهما وقوة عظامهما واستقامتهما . وكانت سيقان الفتيان في معظم الاحوال معوجة (بسبب نقص التغذية في الطفولة) والفتى منهم لا يستطيع ان يرفع قدمه ليضعها على حافة المنضدة الرخامية العالية على ان تظل قدمه الاخرى فوق الارض . اقصى ما كان يستطيعه

الواحد منهم هو ان يرفع احدى قدميه ويضعها على حافة المقعد الخشبي المنخفض . وكانت ترى معظم الفتيان يقفون هذه الوقفة ، فهي عادية ومسموح بها للذكور فحسب .

الوحيد الذي كان يستطيع ان يرفع قدمه اكثر ليضعها على حافة المنضدة هو الدكتور علوي استاذ التشريح . يمر بين المناضد بمعطفه الابيض ونظارته البيضاء، وحين يقف عند اي منضدة يخفض الطلبة اقدامهم المرفوعة على المقاعد ، ويقفون امامه فوق ساقين تكادان تلتصقان . اما هو فيرفع قدمه عاليا في الهواء ، ويضعها بكل ثقة على حافة المنضدة ، وينظر مباشرة في عيون الطلبة ، بعينين زرقاوين لا ترمشان .

حين كان يقف عند منضدتها لم تكن تخفض قدمها . وحينما يصوب اليها عينيه الزرقاوين تصوب اليه عينيها السوداوين . كانت تدرك ان اللون الاسود اشد قوة من اللون الازرق وبالذات في العينين . الاسود هو الاصل ، هو الجذر العميق الممدود في بطن الارض .

بين اصابعه البيضاء المحمرة كان يبرز الملقط المعدني ، يمده في بطن الجثة المفتوح ، او الذراع ، او الساق ، او الراس ، او العنق ، ويمسك اي شيء بطرفيه الرفيعين ويصيح بصوته الحاد : ما هذا ؟ دائما كان يلتقط اصغر الاشياء وادقها . وريد صغير يجري تحت عضلة صغيرة ، شريان رفيع مختف في ثنية جلد ، عصب دقيق كالشعرة لا يكاد يمسك بالملقط .

كن ثماني فتيات حول جثة واحدة . وبينهن واحدة او اكثر تحفظ اسماء الاوردة والشرايين والاعصاب عن

ظهر قلب . فما ان يسال الدكتور علوي : ما هذا ؟ حتى يرن في المشرحة صوت انثوي حاد ومنخفض في نفس الوقت بالاسم الصحيح .

في كل مرة كان ينظر اليها ، متوقعا مرة ان ترد ، ان تثبت له انها تعرف الاجابة لكنها كانت ترفض من حيث لا تدري ان يمتحنها احد .

ذلك اليوم، الرابع من سبتمبر،كانت تحس ان شيئا خطيرا سيقع في حياتها . كل سنة في مثل هذا اليوم ينتابها هذا الاحساس . تفتح عينيها في الصباح وترى الشمس متوهجة بشكل غير عادي ، وعيني امها اكثر حدة وبريقا ، وتهمس لنفسها بصوت خافت : في مثل هذا اليوم حدث لامي شيء خطير في نظري ، فقد ولدتني . وفي كل مرة تحس ان شيئا خطيرا سيحدث في هذا اليوم ، اشد خطورة من كونها تولد .

وحينما تهمس في اذن امها بهذا الخاطر تضحك تلك الضحكة الانثوية المألوفة في ذلك الوقت ، المكتومة على شكل شهيق متقطع وتقول : اعقلي يا بهية .

لم تكن امها تفهمها . وحين تراها في مكانها المعهود في السرير تزحف بهدوء الى جوارها وتحتل مكان ابيها . وكما كانت تراه يفعل تلف ذراعيها الصغيرتين حول عنقها الكبير . كانت تدرك باحساس يقيني ان جسد امها هو الوحيد الذي يفهمها . وتلتف ذراعا امها الكبيرتان حولها بقوة غريبة تكاد تسحقها .

ذلك الحين كانت تقرأ قصص الاطفال والاساطير

الخرافية . في احدى تلـك الاساطير كان هناك اله رهيب يعبده الناس في مدينة سحرية . هذا الاله كان قادرا علـى ان يمسك بيده الواحدة اي شيء صلب ، ويضغط عليه ، ثم يفتح يده ، فاذا بها فارغة .

وكانت تنزعج امام هذه القوة التـــي تهدد وجودها انزعاجا فطريا لـم تفهمه في طفولتها ، لكنها اصبحت تفهمه بالتدريج،وادركتمن بعد انها كانتتفهمهمنذ البداية، منذ اللحظـة التي اكتشفت فيهـا ان لهـا جسدا خاصا منفصلا عـن جسد امها .

هذه اللحظة لا تغيب عن ذاكرتها . الالم فيهـا كـان كالسكين الذي يمزق اللحم من اللحم . ومع ذلك لم يكن الما حقيقيا . حين دارت يدها دورة كاملة حول جسدها المستقل قفزت في الهواء قفزة عالية . كعصفور يطير من الفرح . لكنهـا لـم تكـن عصفورا ، وسقطت على الأرض (بسبب الجاذبية الارضية). منذ ذلك السقوط وهي تعرف وزن جسدها الخاص . تعرف انه اثقل منها . وان الارض تشده اليها بقوة اكثر من قوتها ، كذراعي امها تشدانها اليها مرة اخرى . وبكلقوتهاتحاولان تجعل جسديهما شيئاواحدا،بلا جدوى ،فالانفصال الابدي حدث في لحظة مضت ولن تعود .

منذ طفولتها وهي تحس المأساة فوق جسدهاالخاص. تحملها معها في كل خطوة ، داخل كل خلية مـن خلاياها . رغبة جامحة في العودة من حيث اتت . في الخروج من مجال الجاذبية الارضية ، في أن تصبح بغير جسد لـه ثقل ، وله سطح ، وله حدود خارجية تفصله عما حوله . رغبة جامحة

في الذوبان كذرات الهواء في الكـون ، والتلاشي الكامـل النهائي .

كانت تحملق في صورة الاله الخرافي ، وتدقق فـي اصابعه الكبيرة وهي تسحق الاشياء بضغطة واحدة. وحينما تنهض في الليل مفزوعةتتسلل الى سرير امها وابيها وتدس جسمها الصغير بين جسميهما العاريين . لكن ذراعي ابيهـا الكبيرتين تشدانها بعيدا عنهما ، بكل قوته يبعدها . اما امها فتنظر اليهـا بعينين سوداوين تشبهان عينيها وتقول بصوت حان : اذهبي الى سريرك يا بهية . لقد كبرت .

صوتها كان حانيا ، تحس حنانه كالاصابع الناعمة فوق جسدها، تدور برقة وحنان ، تدور دورة كاملة وكأنها ترسم خطوط جسـدها ، تحدده عن الكون الخارجي . وتبكي وحدها في سريرها بسبب ذلك الحنان ،الذي يلامسها برقة ويؤكد وجودها المستقل،وكيانها الخاص المنفصـل ،وتنشج ببكاء مكتوم يرجها ويرج السرير ، وتجتاحها الرغبة الجامحـة في ان تكف هذه الاصابع عن حنانها الخادع ، وان تضغط عليهـا بقوة رهيبة ، تخلصها الى الابد من جسـدهـا وتجعلها هـي وامهـا شيئـا واحدا .

اغمضت عينيها لتنام لكنها لم تنم. تملكها الفزع لفكرة غريبة خطرت لها . ذلك انها ستفني حياتها كلها بحثا عن هذه اللحظـة او هربا منها . وخبأت رأسها تحت اللحاف مـن شدة الرعب ، وامتلأت حجرة نومها باشباح الاساطير والالهة الخرافية ، يضغطون على جسدها ليسحقوها وهي تقاوم بكل قوتها ، ترفسهم بقدمها ، وتعضهم باسنانهـــا ، وتصرخ

مستنجدة بابيها وامها .

صراخها لم يكن خوفا حقيقيا . كان خدعة ، تخدع بها امها . كانت تتعلم الخداع منها . كانت امها تكذب عليها . تنام معها في سريرها وتقول لها انها لن تتركها . وفي منتصف الليل تحس بها وهي تتسلل خارج سريرها وتذهب الى سرير ابيها . وكانت تفعل مثلها تماما . ـ تعرف كيف تصرخ بصوت مرتعش مثير للشفقة وتأتي امها اليها وتنام في سريرها .

لم تكن امها تفهم رغبتها . كانت تملأ فمها بالطعام ، وحين تستدير تبصق الطعام في الصحن . وتعجب كيف ان امها لا تعرف مع انها كانت مثلها . سألتها مرة فقالت انها لا تذكر شيئا . وادركت ان الناس تنسى عن قصد الذكريات الحقيقية ثم تملأ ذاكرتها باشياء لم تحدث .

قالت لها ببراءة الاطفال انها اكتشفت انها فتاة وليست ذكرا ، وكشفت عن ملابسها لتثبت لها الحقيقة . لكنها ضربتها على يدها وصاحت : تحرمي ! ولم ترد فضربتها مرة اخرى وهي تقول : قولي حرمت ! ولم ترد . فرفعت يدها في الهواء وصفعتها على وجهها . ولم ينفتح فمها لتقول حرمت ، لان ذهنها هو الذي انفتح على حقيقة غريبة ، وادركت وهي تزم شفتيها وتطرق برأسها الى الارض ان الناس لا تحرم الا الرغبات الحقيقية ، لانها قوية ، اما الرغبات غير الحقيقية فهي ضعيفة ولا تحتاج الي قوانين تحريم . وبدأت تبحث في كل المحرمات من حولها لتكشف رغبات الانسان الحقيقية .

انه البحث من إجل معرفة الحقيقة ، ولا شيء اكثر من هـذا . لـم تكـن تريـد شيئـا اكثـر مـن هـذا . وحينمـا يمـر الدكتـور علـوي بعربتـه الطويلـة من خلال نافذة المشرحة تلمع عيون زميلاتها السبع وتتحرك سبع ننيات (جمع ننى) في اتجاه واحد محدد . لكن النني الاسود الراسخ في عينيها يظل مشدودا الى ذلـك الاحساس الغريـب الذي ينبهها بأن كل شيء مباح غير حقيقي. وتلكزها احدى الزميلات باصبع مدبب في كتفهـا قائلـة : انظري ! وترفع رأسهـا ناحيـة النافذة ، وترى العربة الطويلة ، يطل منهـا رأس له عينان زرقـاوان جاحظتان بعض الشيء ويلكزها الاصبع المدبب في كتفها مرة اخرى :

ـ ما رأيك يا بهيـة ؟

ـ نظرته غير حقيقية .

وتضربها بكفها البضة على ظهرها وتقول بصوت ساخر :

ـ يا خيبتك القويـة !

وتنفتح الافواه السبعة في ضحكة انثوية ، مكتومـة ومتقطعة ، كأنفاس تلهث بحرمان عاجز عن الارتواء الى الابد .

غضبت من حرمانهـن اكثر مما غضبت من ضحكهن ، وصعد الدم الى وجهها ، فلمت مشارطها وادوات تشريحها ووضعتها في محفظتها الجلدية ، وغادرت المشرحة . حيـن سارت في الهواء الطلق ، وتلاشت من انفها رائحة الفورمالين والجثث الميتة ادركت أنها لم تكن غاضبة من حرمانهـن ولا من ضحكهـن ، وانمـا هي تريد ان تهمس في اذن احـد بذلك الاحساس الغريب الذي يتكوم في جوفها كالجنين طوال

السنة ، يتراكم يوماً بعد يوم ، ويعلو ويشتد ليبلغ الذروة في اليوم الرابع من كل سبتمبر ، يؤكد لها عن يقين انها ليست بهية شاهين .

خرجت من الكلية وسارت في شارع القصر العيني ، تحملق في الوجوه كأنما تبحث بينها عن وجهها الحقيقي . وعند محطة الترام وقفت ، وادركت انها لم تكن تبحث عن شيء ، وانها مرهقة وجائعة .

جلست في الترام ، ظهرها في ظهر رجل ، ووجهها في وجه رجل ، وعلى يمينها رجل وعن يسارها رجل ، وامامها صفوف من الرجال الجالسين متلاصقين في صمت ، انصافهم السفلى ثابتة متحجرة فوق المقاعد ، وانصافهم العليا تهتز بحركة بطيئة منتظمة كحركة الترام . وحين يقف الترام تتراجع رؤوسهم الى الخلف بقوة ، فاذا بهم يفتحون عيونهم في ذعر ، وحين يطمئنون الى ان رؤوسهم لا تزال في موضعها يغمضون عيونهم وينامون .

موظفون كلهم ، لان شارع القصر العيني مكتظ بالوزارات ودواوين الحكومة . اجسامهم لها شكل واحد وملامحهم وبدلهم واصابعهم واحذيتهم كلها اتخذت شكلا واحدا كأنما الحكومة تصكهم كما تصك النقود في قطع مخروطية متشابهة . اكتافهم متلاصقة ، متهدلة بعض الشيء (رغم حشو البدلة السميك) كأنما يحملون فوق اكتافهم عبئا ابديا لا يرى بالعين وانما هو قائم وموجود . والدليل على ذلك انهم من حين الى حين يحركون اكتافهم بطريقة توحي بانهم يزحزحون العبء من كتف الى كتف .

ورغم انهم نائمون الا ان حركة عيونهم من تحت الجفن تكشف لها ان نومهم ليس حقيقيا ، وحين يفتحون عيونهم وينظرون اليها تدرك ان يقظتهم ايضا غير حقيقية ، ويصبح كل شيء فيهم ومن حولهم غير حقيقي . اذا انفرجت شفاههم وظهرت اسنانهم لا تعرف اذا ما كانوا يبتسمون ام يكشرون ـ واذا حركوا اصابعهم وهم يصعدون الترام او يهبطون منه لا تعرف اذا ما كانوا يتبادلون التحيات ام التهديدات . ويصبح كل شيء فيهم مختلطا ، والشيء ونقيضه يتماثلان ـ فالابتسامة كالتكشيرة، والتحية كالتهديد، والصدق كالكذب ، والفضيلة كالرذيلة ، والحب كالكراهية . وتتشابه الحركات والملامح والمعاني الى حد الشعور بالاختناق، وتمد عنقها خارج الترام لتجذب نفسا عميقا من هواء الشارع . وحين يعود تنفسها الهادىء تدرك التشويه الذي تصنعه الحكومات بالبشر ، فيصبح الرجل البالغ في حجم الطفل ،لكن عظام جمجمته تفضح عمره الحقيقي ، وتدل البدلة والكرافتة على انه من الطبقة الحاكمة، لكن مشيته تكشف عن حقيقة كونه من المحكومين .

في كل مكان كانت تراهم ، يملأون الشوارع ، وتكتظ بهم الترامات ، يدخلون ويخرجون من الابواب، والردهات والابنية ، باجسامهم الصغيرة ، واكتافهم المحشوة العريضة وجماجمهم الكبيرة ، وظهورهم المحنية ، وشفاههم المنفرجة دائما عن ابتسامة كالتكشيرة او تكشيرة كالابتسامة . مخلوقات ادمية مسخت بقدرة قادر ، بقوة هائلة غير بشرية ، تحول البشر الى مخلوقات اخرى غير بشرية .

هبطت من الترام وسارت نحو بيتها . رات على بعـد رجلا يشبه الرجال الاخرين ذا كتفيـن عريضتين وجمجمة كبيرة وظهر محني . تفادت النظـر اليه واسرعت الخطـى لتدخل بيتها ، لكنه ناداهـا باسمها فالتفتت اليه ، ورات وجه ابيها . لا بد انه راى ذعرا شديدا على وجهها لان عينيه اتسعتا في دهشة وقال :

ـ مالك يا بهيـة ؟

واخفت عينيها بكفها وجرت من امامه الى البيت .

كان وجهها لا يزال شاحبا حين فتحت امها الباب . لكنها لم تلحظ شحوبها .كانت شاحبة دائما ، ومن الصعب على امراة مثلهـا ان تقدر على تمييز درجات الشحوب ،فهي قدرة نادرة تحتاج الى قدرة على التحديق الطويل . ولم تكن امها تقدر على التحديق في وجهها . كانت عيناها لا تقويان على الثبات في عينيها .واتخذت من ذلك دليلا على انهـا كانت تخدعها منذ الطفولة . وابوها ايضا خدعها . كان يظهر امامهـا في البيت بجسد طويل ضخم ، وظهر مشدود وكف كبيرة قوية قادرة على صفعها ، مع انه ليس الا واحدا مـن الاف الموظفيـن في الحكومة .

ثماني عشرة شمعة مضاءة فوق المائدة البيضاء ، وامها تملأ فمها بالحلوى ، وحين تستدير تبصقهـا فـي الصحن وابوها يبتسم في وجهها ، ولكنهـا تشك في ابتسامته . ابوهـا كله اصبح حقيقة مشكوكا فيها . الشك كالشمعة له ضوء احمر وله لسعة حادة كالابرة . لا زالت تذكر اللسعة فوق اصبعها ، والمائدة هي المائدة ، ولكن كان عليهـا شمعة واحدة . كان عمرهـا عامـا واحدا . الضوء الاحمر كانت تراه في عينها كجزءمنها .وجسمها الصغير الناعم زاحف فوق الارض ملتصق كقطعة منها . لم تكن قد انفصلت بعد عن الكون ، ولم تكن يدها تستطيع ان تدور حول جسمها دورة كاملـة .كانت يدها صغيرة وجسمها كبيرا ضخما يشغل المساحـة الضخمة بيـن السقف والارض . وحينمـا كانت تمد يدها وتتفقد ساقيها لـم تكـن تعرف اهما ساقاها ام ساقا الكرسي.؟ وحينمـا رات الضوء الاحمر في عينيها لم تعرف اهو ضوء الشمعة ام ضوء عينيها . وغاظها الشـك فارادت ان تتاكـد ، ومدت اصبعها فلسعتها النار ، وعرفت الفرق بيـن اللهب وعينيها ، ومن خلال الشك والالم اصبحت حدود جسمها تتشكل واعضاؤها تأخذ شكلها الخاص .

سمعت صوت امها ياتيهـا من فوق المائدة البيضاء ، مجتازا ثمانية عشر لسانا رفيعـا من اللهب : كـل سنـة

وانتِ طيبة يا بهية . دهشت ولم تصدق انها بلغت ثمـانية عشر عامـا . هل دار الكون حول نفسه ثماني عشرة سنة ؟ لم تعرف كيف سألت السؤال ، لكن خيطا حريريا غير مرئي يربط دورتها بدورة الكون . حين كانت تحملق في قرص القمر تمتد بينها وبينه الخيوط الحريرية كالاسلاك تشدها اليـه وتشده اليها . لكن جاذبيـة الارض اشد ، وهي بينهما تبدو ساكنـة من فوق السطح ، لكـن اعماقها كدوامـة البحـر تغلي ، تقاوم الشد من كل جانب ، وينفجر في داخلها شيء صغير مستدير كالبالونة المنتفخة ، وتخرج البيضة الدقيقة بحجم راس الدبوس ، وفي راسها عين واحدة تحملق ، تسبح الى الامام وتحملق باحثة عن لحظة الاتصال الابدية ، لتنسحق في الكـون وتتبدد تمامـا .

اصبح وجهها احمر في ضوء الشموع وظن ابوها انهـا تخجل كفتيات الثامنة عشرة ، لكنها لم تكن في الثامنة عشرة ، ولـم تكـن فتاة ، فما معنى فتاة ؟ سألت السؤال لابيها وامها وزميلاتهـا في المشرحة ، وحينمـا سمع الدكتور علـوي السؤال دب ملقطه المعدني في بطـن المراة المفتوح وامسك الرحم . مثلث صغير من اللحم بحجم ثمرة الكمثرى الصغيرة ، املس من السطح ، ومجعد من الداخل وقاعدته الى اعلـى وراسه الى اسفل .

ثبت عينيه الزرقاوين في عينيهـا السوداوين وابتسم . لكنهـا لـم تبتسم . وشدها من يدها الى المنضدة المجاورة وقال بلهجة الاستاذ : اما الرجل فهذا . وامسك بطرفـي الملقط عضو الذكر . ورات قطعة جلد سوداء مجعدة كقطعـة بـراز قديم .

حين عادت الى البيت جلست امام امها وطلبت منها ان تحدق في وجهها طويلا ثم سألتها : هل انا بهية ؟ وتشهق امها شهقتهـــا الانثوية المكبوتة الى الابد وتقول : اعقلي يابنتي! لم تكـن امها تفهمها ، لكن كانت تفهم امها ، وحين تحدق في عينيها طويلا كانت تستطيع ان ترى رحمها ، مكورا وقابعا في قاع بطنها ، وتلمح عضلاته وهي تنقبض وتنبسط ، وتنقبض وتنبسط ، في نبض سريع متصل ، كنبض الكون في سكون الليل ، وبحركـة لا مرئية ولا محسوسة كحركة الارض . تود ان تضغط بكل قوتهـا على هذا الرحم لتبطل حركته السرية المجنونة ، وليسكن الى الابد ، لكن امها تطرق بعينيهـا الى الارض ، لا تقوى على النظر طويلا في عينيها . فـي اعماقها شيء تخفيه عنها ، تدفنه في طيات نفسها ، وتلف عليـه احشاءها طبقة فوق طبقة ، ليصبـح غير مرئي ، وحركته مخفية لا نهائية ، سرية الى الابد .

الابد كلمة لا تعرف معناها ، فاليوم يمر وراء اليوم ، ودورة القمر تتعاقب مع دورة الدم في عروقها ، والخليـة المنتفخة في اعماقها تتفجر في اللحظة نفسها ، وتدور البيضة الدقيقة حول نفسها دورانـا سريعـا مجنونا كدورة الارض حول نفسها ، وبعينها الواحدة تحملق في الكون باحثة عن فناء ذاتها ، بلا جدوى ، بلا جدوى يتكرر الاحباط كل مرة ، مع دورة القمر اللامجدية ، ويتراكـم الغضب في اعماقها

كسخونة الدم ، يتجمع ويتراكم ويدور مع دورة الزمن داخل مجال جسدها ، تحسه على يقين في خلاياها ، احساسا ملحا شديد الالحاح ، ينبئها بان شيئا خطيرا سيحدث لها في يوم من الايام ، يوم معين محدد .

لم يكن من عادتها ان تحمل مفكرة بالايام ، ولم تكن تنظر الى النتيجة المعلقة في حجرة ابيها والتي تراه يشد منها كل يوم ورقة . يشدها بالطريقة نفسها وفي اللحظة نفسها كل صباح . يشدها ويكورها بين اصابعه وتشدها بعيدا وتصرخ في وجهه : اتركها ! قبل ان يرفع ابوها يده الكبيرة عن الورقة تتوقع انها اخطات ، وان الشمس لم تتوهج بدرجة غير عادية وان عيني امها هما عيناها ككل يوم ، وان ذلك الاحساس الغريب الذي انتابها ليس الا وهما من اوهامها الكثيرة المتنوعة . وتستدير وتترك اباها ليشد الورقة كما يشدها كل يوم ، لكنه لا يشدها ، وتسمع صوته من خلف ظهرها يقول : كل سنة وانت طيبة يا بهية ، ويلتوي عنقها في حركة سريعة عنيفة ، وتصطدم عيناها بالرقم ٤ (اربعة) فوق الورقة البيضاء كخط زجاجي اسود . ويهرب الدم من وجهها ويصبح شاحبا .

تتلفت حولها وهي تسير في الشارع وحين تسمع صوتا من خلفها تتوقف وتستدير كأن احدا يناديها . وتدرك بعد لحظة انه ينادي اسما اخر على وزن بهية ، كوفية او نجية او علية ، او زكية .

وحين تركب الترام يخيل اليها ان احدا ركب وراءها ، انه يتبعها ، وحين تهبط في شارع القصر العيني تكاد تسمع

خطواته من خلفها ، وحين تدخل من باب الكلية يدخل .

في فناء الكليــة الواسع المزدحم تفقـــده ، تختلط الاصوات والملامح، وتحس انها تغرق في بحر وحدها ، دون أن يراها احد ، ودون ان يميزها احد ، وان وجهها اصبح كوجه زميلاتها لا فرق بيــن بهية او علية او سعاد او ايفون، وفي هذه اللحظة تدرك المعنــى الحقيقــي للموت . كانت تبحث عن الموت في جثث المشرحــة . لكن الموت كالحيــاة لا يعيش فــي الجثث .

الموت لا يعيش الا في ذهن حي، شديد الحياة ، قادر على التقاط ادنى الاحاسيس واكثرها اختفاء وسرية ، كذلك الاحساس بالضياع الذي تحسه ذرة هواء سابحة في الكــون تقــاوم الضياع بين ملاييــن الذرات ، او كتلــك الرغبـــة المحيطة التي تحسها قطرة ماء تقاوم الذوبان في ماء البحر . المقاومــة المجنونة اليائسة في قمة الاحباط ، تصنع الاستسلام الكامل كالسكون الابدي . من ينظر الـى وجهها فــي تلــك اللحظة يظن انها عمياء وخرساء ، وان جسدها ســاكــن لا يتحرك ، مع ان قدميها تنتقلان على الارض ، القدم وراء القدم ، والاشياء أمام عينيهــا بلون واحد وشكــل واحد ، والاجسام كلها متشابهة ، والحركات والاصوات متشابهة . تجد نفسها تجري بغير وعي ، هاربة من فنــاء الكليــة ، هاربة من التشابه المميت ، داخلهــا وخارجها ، في جسدها وفــي العالم الخارجي .

كان لهــا ركــن صغير منفصل ، منعزل ، بحذاء سور الكلية ، وراء المبنى الضخم ، تجلس فيه على مقعد خشبي بغير

ظهر ، تجلس محنية الى الامام ، تحملق في قطعة صغيرة من الارض بحجم كف اليد لم ينبت عليها العشب الاخضر ،ودون بقيــة الارض من حولها ظلت طينية اللون ، مشققة ، ومن بين الشقوق الرفيعــة تدخل وتخرج ملاييــن الكائنات الدقيقــة بحجـم النمل .

ـ بهية !

يرن الاسم في اذنها غريبا كاسم واحدة غيرهــا ، وتنتفض مــن فوق المقعد ، وفي انتفاضة جسدها تدرك ان لهــا جسداً خاصا ، يمكن ان تحركه وتهزه فلا تهتز معــه الاجسام الاخرى وان له اسما خاصا ، حينمــا يرن في الجو ترفع راسهــا وتندهش ، وقد تسأل : من يناديني ؟ فــي كل مرة تسمع النداء تندهش ، وتدرك باحساس خفي ان احــدا يناديهــا باسمها من دون الاسماء الاخرى ، ويتعرف علــى جسدها من ملاييــن الاجساد ، ويستطيع ان يميزها مــن بين المخلوقات السابحة في الكون بالبلايين .

يهرب الدم من وجهها في شحوب غير بشري،كشحوب التماثيل المنحوتة من الصخر ، او كوجوه الجثث المرصوصة على المناضد الرخامية في المشرحة . ورات لون وجهها حين نظرت في مرآة حجرة الطالبات ، واصابعها حين لمست بشرتها كانت باردة مثلجة . وتعرف عن يقين انها ترتعد وانها تريد ان تهرب من ذلك الصوت الذي ناداها ، من ذلك النداء الذي يقصدها هي بالذات ،من تلك القدرة الخارقة التي استطاعت ان تميزهــا هي دون الاخرين ، ارادت ان تهرب . بسرعة لم تألفها قدماها دست نفسها بين الطالبات وجعلت جسدهــا

يتوه بيـن اجسادهن وراسها يختفي بين رؤوسهن . وحينما تتحـرك الرؤوس تحرك راسها معها ، الى اليميـن او الـى اليسار او الى الامام او الى الخلف ،تحتمي فيها كدرع،وتظل كذلك بينهن مختفية،لا تقوى على ان تطل براسهاالىالخارج، فهناك فيالخارج قوة خارقة للطبيعـة تستطيع ان تلتقطهـا من وسط الزحام ، وتميز جسدها من بين الاجساد . قوة قادرة رهيبة ، ما ان تطل براسهـا حتـى تشدها اليها بمغنطـة اشـد من جاذبية الارض ، ومـا ان تشدها حتى تدخل مجالها الكهربي ، وتدور في فلكها كنحلة مجنونة نزعوا عنهـا قرنهـا فراحت تدور حول نفسها حتى يسحقهـا الدوران .

كانت تشعر بذلك الخطر ينمو داخلها ويكبر ، ذلـك الخطر الذي يهددها بانها منسحقة لا محالة ، وان جرثومة ما تعيش في جسدها ، تنهشه في حذر وهـدوء لتسحقه بالتدريج دون ان تدري ، او انه سينسحق فجاة وفي لحظة خاطفـة تحت قضبان الترام ، او بين عجلات الاتوبيس . وان احدا لن ينقذها . وحينما تسمع صراخا وتطل براسها من الترام وترى الجسد الممزق فوق القضبان تحس انه جسدها، وهذا الوجه الشاحب هو وجهها ، وهذا الدم الاحمر فـوق الاسفلت هو دمها . ثم يتحرك الترام مرة اخرى وتجد جسدها قابعـا في مكانه فوق المقعد سليمـا صحيحا ، ودمهـا لا زال داخل عروقها لم يخرج،وتدرك باحساس خفي،ولكنه يقيني، ان اليوم لم يأت بعد ، وانها لا زالت بهية شاهين ، طالبـة الطب المجدة حسنـة السير والسلـوك ، ابنـة محمـد

شاهيـن المديـر بوزارة الصحة .

تدخل الكلية بحركة تشبه حركتها كل يوم، وتتجـه الى مدرج علي باشا ابراهيم وتجلس في المقعد الذي تجلس فيه كل يوم . اخر مقعد في اخر صف من ناحية اليسار . من يراها يظـن انهـا نائمة في مقعدها ، مع انهـا يقظة شديدة اليقظة ، ترى الطلبة بوضوح اشد من اي وضوح سبـق ، تراهم وهم يندفعون من الباب ، يدوسون على اقدام بعضهم البعض ، الحقائب المنتفخـة بكتب التشريح مضغوطة تحت الابط ، والنظارة البيضاء السميكة تهتز فوق الانف تسندها اليـد اليسرى من السقوط، والذراع اليمنى ممدودة الـى الامـام تزيح الاجسام الاخرى من الطريق يتسارعون الـى احتلال الصفوف الاماميـة من المدرج ، ويجلس الواحد منهم في مقعده وهو يلهث ، ويفتح كشكول المحاضرات باصابـع حمراء متورمة (بسبب التسلق على الترام) يدلكهـا بحركة سريعـة ثم يضعها في جيبه ، وقد يضع رأسه داخـل الكشكول ليراجع المحاضرات السابقة ، أو يمـد عنقه الـى اليمين او الى اليسار ويهمس في اذن زميله بنكتة (في معظم الاحسان نابية) وحين يدخل الاستاذ يدب الصمت في المدرج، ويصبح الواحد منهم قادرا على سماع الاصوات المنبعثة من معدة الاخر (بسبب عدم تناول الافطار قبل الحضور)يتحرك الاستاذ امامهم من فوق المنصة ، بخطوات بطيئـة هادئة ، وصوته هاديء وجسده هاديء واعضاؤه مستريحة وخلاياه مطمئنة ، كذلك الاطمئنان الذي تشعر به خلايا المعدة بعـد غذاء دسم ، أوخلايا الالية بعد الاسترخاء في مقعد وثير .

ويغمض الطلبة عيونهم ويحلمون بهذا الاسترخاء ، ويدركون انه حلم قديم منذ الطفولة ، منذ لمحوا البريق في عيون ابائهم وامهاتهم حين يرن في الجو اسم دكتور .

كانت تجلس في مقعدها الخلفي ، لا ترى عيونهم ، وانما ظهورهم ، وكلها محنية الى الامام فوق كشاكيل المحاضرات ، ويخيل اليها انهم سيظلون الى الابد محنيين ومنكفئين فوق وجوههم ، وتندهش حين تراهم (بعد انتهاء المحاضرة) يتحركون ، وانهم ينهضون بسرعة ويندفعون نحو الباب ، يدوسون على اقدام بعضهم البعض ، ويتدافعون بالاذرع وعظام الكوع المدببة ، وحينما يندس كوع الواحد منهم في ثدي طالبة تنفرج شفتاها في حركة غير مرئية ، لا تكاد الشفة ترتفع عن الشفة ، وبصوت مكتوم غير مسموع تقول : آه ! وتضع حقيبة الكتب المنتفخة فوق صدرها . في ذلك الوقت يكون ملمس الثدي الطري قد سرى كالترياق من كوع الواحد منهم الى كتفه الى عنقه . وتتقلص العضلات وتصبح الاعناق مشدودة ، والملامح مشدودة ، وتبدو العيون من شدة التوتر كنقطة الوسط في حبل مشدود من طرفيه، ساكنة من السطح ، لكن خلاياها العميقة تموج بحركة لا مرئية ، حركة عنيفة مجنونة تقاوم الشد ، وتلتوي عضلات العين ناحية كل شيء فيه طراوة اللحم، لا تفرق بين الاثداء او الارداف أو الحقائب الجلدية، ويضغط الواحد منهم باسنانه، من غير وعي ، على حقيبة كتبه الجلدية يقطع منها قطعة يمضغها ، وحين يكتشف انها قطعة جلد يخجل من نفسه ، ويخفي بكفيه الثقوب المنتشرة في حقيبته . وفي الترام يصبح

كل شيء فوق طاقته، ويجد نفسه مدسوسا ، عن غير قصد، بين تدبي امراة . وفي منتصف الليل يغلق كتب التشريح وينام في السرير ، لكن جسده يأبى النوم فقد تجمع الترياق في بؤرة محددة ، وتكون براس مدبب كراس الدمل ، وما هي الا ضغطة واحدة باليد حتى ينفقىء .

كانت تدرك بوضوح انها لا تحب هؤلاء الطلبة ، لاتحب اندفاعهم من الباب ، بنظاراتهم السميكة وعيونهم المشدودة ، وكيمانهم المدببة ، واحتلالهم المقاعد الامامية ، وظهورهم المحنية تصبح في وجهها ، وتحملق في اعناقهم من الخلف وترى من فوق حافة الياقة البيضاء البشرة السمراء واضحة المسام ، ومنابت الشعر المقصوص وفتافيت كالدمامل الصغيرة .

وتهمس في اذن زميلتها بشيء ، فتشهق الزميلة بالضحكة الانثوية المكبوتة وتقول : اعقلي يا بهية ، وفكري في مستقبلك .

احساس خفي ، لكنه قوي ، ينبئها بان مستقبلها ليس في هذه المحاضرات الطويلة المملة ، وليس في الحصول على شهادة الطب ، وتركيب اليافطة الطويلة في الميدان (دكتورة بهية شاهين) ـ واسترخاء الاليتين في مقعد السيارة الوثير . كل هذا يبدو لها ، باحساس خفي ، بلا معنى ، كالصفحة البيضاء الخالية تماما من الكتابة ، كالليل الاسود الخالي من نجم واحد ، كالكون الضخم وقد اصبح كله اسود او ابيض لا فرق ، فهو كله بلون واحد .

حينئذ تدرك العبث ، عبث الكون من حولها ، وعبث

الحياة ، وعبث هذا الاستاذ الذي رشق السيجارة في زاوية فمه ، وعبث هذه المحاضرة ، وعبث هذه الظهور المحنية الى الامام والاعناق المرشوقة من الخلف بالفتافيت .

تضع كتبها وكشاكيلها داخل حقيبتها ،وبحركة جانبية يصبح جسدها منفصلا عن المقعد ، وبحركة الى الخلف تخرج من الباب الخلفي للمدرج ، وفي اقل من لحظة تصبح وحدها في فناء الكليـة الواسـع .

تسال نفسها وهي تحرك ساقيها في مشيتها العادية ماذا تريد بحياتها ، وتترك السؤال بغير جواب معلقا امامها في الفضاء ، يحركه الهواء امام عينيها كبندول الساعة .

وتخبط الارض بقدم واحدة بخبطة قوية واحدة،وتدرك عن يقيـن انهـا تريد بحياتهـا شيئـا معينا ، شيئـا يمكـن تحديده بنقطـة محددة ، تستطيع ان تصنعها بسن الريشة فوق صفحة بيضاء ، وتستطيـع ان تلمسها بطرف اصبعها ، تماما وباليقين نفسه الذي تلمس به جسدهاوتحس حدوده الخارجية من تحت ملابسها ، وتستطيع أن تميزه من كل الاجساد ، وتفصله عن الارض ـ بحركة من قدمها .

فوق سريرها في حجرتها الصغيرة ، تحملـق فـي السقف ، ترى نفسها وهي جالسة علـــى كرسيها الاحمر الصغير ، وامامها منضدتها الحمراء ، فوقها الكراريس وكتابه المطالعـة الرشيدة ، غلافه ازرق ، تتوسطه التكت البيضاء، الاسم : بهيـة شاهين ، الفصل : اول ابتدائي ، وتشدالورقة البيضاء من الكراسة ، وبحركة من يدها الصغيرة تصنع بسن الريشة خطا واضحا ، تدرك من شكله انه خطها ، وأن اليد

يدها ، والاصابع من حول الريشة اصابعها ، تحركها بارادتها ، وتصنع فوق الصفحة البيضاء خطوطها المميزة ، تصنع الدائرة الكبيرة ومن داخلها دائرتين صغيرتين فيصبح امامها وجها وعينين تنظران اليهـا من فوق الورقة البيضاء ، سوداوين وواسعتيـن كعينيها تطلان من خلال المراة ، تتأمل خطوطها فو قالورقة كمـا تتامل ملامحها ، تعرفها كما تعرف وجهها لا نخلط بينه وبين الوجوه الاخرى ، وتستطيـع ان تميزه ، وتلمس خطوطها فوق الورقة باصبعها تماما ، وباليقين نفسه الذي تلمس به جسدها ، وتحس حدوده الخارجية من تحت ملابسهـا .

فتح ابوها الباب ، فاخفت الورقة تحت كتاب المطالعة، لكن اصابعه الكبيرة رفعت الكتاب وشدت الورقة ومن فوقها الخطوط . ضربها على يدها الصغيرة بكفه الكبيرة وهو يقول: تضيعيـن وقت المذاكرة في الشخبطة ! وكور الورقة في كفه الكبيرة والقى بها في سلة المهملات .

حين تخرج ، ترمق خطوطها المميزة مكورة الى جـوار تمامة البيت ، وتظل تحملق بها كما تحملق في وجهها فـي المرآة . وتشد ورقة جديدة ، وبحركة يدها الارادية تصنـع خطوطها ، وتدرك رغم طفولتها ان شيئا ما يربط بينها وبيـن هذه الخطوط ، كالاسلاك الكهربية غير المرئيـة او الخيوط الحريرية الرفيعـة بلون الهواء ، تمتد مشدودة بينها وبيـن خطوطها فوق الصفحة البيضاء ، تؤكـد قدرتها على تمييز حركة يدها ، وشكل اصابعها ، وارتفاعـة انفهـا ، وسواد عينيهـا .

وتسمع صوت ابيها وهو جالس في الصالة، قابع في مقعده الاسيوطي ، فتخفي الورقة تحت كتـــاب المطالعة ، وتقرأ من الكتاب بصوت عال ، يرن في اذنها كصوت واحـدة غيرها ، واسمها فوق الغلاف يبدو تحت عينيها غريبا ، كاسم تلميذة اخرى ، مطيعة ومؤدبة ، تسمع الكلام وتعمل الواجب، وتدفـن حقيقة نفسها في طيات الورقة المختفية .

منذ وعت الحياة وهي تسال نفسها السؤال : لماذا كل الاشياء التي تحبهـا محرمة ؟ حتى الطعام يفرضون عليها انواعا منه لا تحبها ، تدسها امها في فمها ، وحين تستدير تبصقها في الصحـن . وابوها بينه وبين خطوطها عـداء ، مـا ان يراها فوق ورقـة حتى يمزقهـا او يكورها ويلقي بها بعيدا مع القمامة ونفايات البيـت .

كالحاجز الطويل الضخم ، كان ابوها يقف بينها وبين نفسها الحقيقية ، يحول بينها بضخامة جسمه ، وصوتـــه القوي الخشن ، وكفه الكبيرة وعينيه الكبيرتين القابعتين في مدخل البيت . حين يرن صوته : بهية ! تدرك انــه ينادي واحدة غيرها ، لكنهـا ترد وتقول : نعم ، ويسألهـا عملت الواجب ؟وتردبصوت مطيع مؤدب : نعم . ويتصل صوتها الى اذنهـا بكلمة نعم فتعلم عن يقيـن انه ليس صوتها .

حين يختفي ابوها من الصالة ، وتصبح في حجرتهـا وحدها تستطيع ان تسمع صوتها الحقيقي ، وتستطيع ان تحدد ملامحه ونبرته الخاصة ، كما تحدد ملامـح وجهها ، وباصابعها الرفيعـة تخلع التكت البيضاء بالاسم المستعارمن فوق الغلاف الازرق ، وبسن الريشة فوق الصفحة البيضاء

تحدد كل الاشياء كما تراها على حقيقتها ، وحين ترسم اباها تصنع له عينين حمراوين وشاربا طويلا اسود وكفا كبيرة واصابع تلتف حول عصا طويلة .

لم يكن لابيها شارب طويل اسود ،لكنها في ذهابها وعودتها من المدرسة كل يوم كانت ترى الشرطي قابعا في كشكه الخشبي على ناصية الشارع . لم تكن ترى من وجهه الا شاربا طويلا اسود ، وحين تقترب من مكانه تسرع الخطى واحيانا تجري ، وتظل تجري حتى تصل البيت .

اما العصا الطويلة فكانت تهتز امام عينيها كل صباح وهي جالسة وراء درجها الخشبي في الفصل ، وصوت المدرسة يرن في اذنيها بنبرة حادة كنبرة ابيها : بهية شاهين! عملت الواجب ؟ في اللحظة الاولى تظن ان المدرسة تنادي واحدة غيرها ، وتطبق شفتيها في صمت ، لكن الصوت الحاد يرن مرة اخرى : بهية شاهين . فتنتفض واقفة وترد بالصوت المؤدب المطيع : نعم .

اليوم الوحيد الذي كانت تحبه هو يوم الجمعة . فهي لا تذهب الى المدرسة ، ومن السرير الصغير تنزلق بخفة الى كرسيها الاحمر ، ومن وسط الكراسة تشد ورقة بيضاء ، وتلتف اصابعها الصغيرة حول الريشة ، وتحرك يدها فوق الورقة وتصنع خطوطها ، واحيانا تخرج من طيات حقيبتها قلما احمر ، أو ازرق ، او اخضر ، اشترته بمصروفها من الدكان المجاور للمدرسة ، او استعارته من زميلة ، وتلون الخطوط ، وتصنع للشجرة اوراقا خضراء ،وللبحر ماء ازرق، وللدم لونا احمر . كيف عرفت ان الدم لونه احمر ؟.

اول بقعة دم حمراء رأتها في حياتهـــــا كانت فوق سروالها الصغير الابيض . ترسمها كالدائرة الحمراء القانية وسط الصفحة البيضاء ، وعينا الطفلة الصغيرة دائرتـــان واسعتان مذعورتان ،وجسمها صغير ورفيع كجسم العصفور يرتجف وراء الجدار ، وعيون كثيرة كالدوائر الواسعةتحملق، وتدفــن سروالها باصابعها المتورمة الصغيرة في حفرة وراء الجدار ، وتسير في الشارع بغير سروال ، تنفذ الريحالباردة بيــن ساقيها تحاول ان ترفع فستانها عن فخــذيها ، لكنها تشد الفستان بيديهــا الاثنتين وتقاوم الريح، وتسير فــوق الشارع الاسفلت تتدلى من بين اصابعهــا الصغيرة الحمراء حقيبة جلدية منتفخة بالكراريس وكتب الحساب والمطالعة.

وحين تقترب مــن الكشك الخشبي تسقط مــن بين ساقيها فوق الاسفلت نقطة حمراء قانية ،تفترش الارض علــى شكل دائرة حمراء ، تتسع وتكبر وتصبح فــي حجم قرص الشمس ، يحملق فيها الشرطي بشاربه الطويل الاسود، ويمد انفه من وراءالكشكمتشمما رائحة الدم،وتلقيحقيبتها على الارض وتجري لاهثة الى البيت .

حركت راسها الثقيل فـوق الوسادة ورات الحقيبـة الجلدية المتفخة بكتب التشريح فوق مكتبها الصغير ، وفوق المكتب جمجمة ، وكشاكيل ، وكوب ماء فيه وردة حمراء . نهضت وقربت انفها من الوردة ، لمحت بطرف عينها النتيجة معلقة على الجدار فتذكرت موعد الامتحان . رصت الكشاكيل والكتب امامها وجلست تحملق في الجمجمة، جمجمة انسان مات منذ سنين ، اشترتها من فراش المشرحة بثلاثة جنيهات. كانت في العام الماضي بجنيه واحد ، لكن الاسعـار ارتفعت والجثث شحت واصبح لها سوق سوداء ، يشترك الحانوتي مع فراش المشرحة ، مع خفير المقابر ، وحين يدهس الترام الجسد المجهول الذي عاش ومات دون ان يعرف لنفسه ابا او اما (يسمونه العديم الاهلية) يبرز على الفور الحانوتي وفي يده الاب ، اي أب ، يؤجره بالساعة ، ويلقى الاب براسه فوق الجسد الميت ويبكي بدموع مزيفة ، كدموع الاباء الحقيقيين ، ويتسلم الجثة ويوقع عليهـا باسمه وتصبح ملكه الخاص — يصنع بها ما يشاء ، تماما كمـا يمتلك الاب ابنه ويصنع بـه مـا يشـاء .

ويبيع الاب جثة ابنه لخفير المقابـر ، الـذي يبيعها للحانوتي ، الذي يبيعها لفراش المشرحة ، وهذا بدوره يبيعها لعميد كلية الطب ، او للطلبة الاثرياء الذيـن يذاكرون فـي

البيت ويحتقرون الذهاب اليومي الى المشرحة .

تأملت بهية الجمجمة ،ورات الشقوق الطولية بين العظام كالجروح الغائرة العميقة وعظام الخدين بـارزة ، والعينـان حفرتان غائرتان في الجبهة ، والفكان مدببان من فوقهما فجوات الاسنان العميقة .

كوجه الطفل الذي يتسلق على الترام بجلبابه الممزق ، وفوق يده علبة الدبابيس وعلب الكبريت وامشاط الشعر ، ينادي بصوته الممزق المبحوح ،ويقفز من ترام الى ترام بساقه الوحيدة ، وينظر الى الناس بعينيه الغائرتين، يبحث في الوجوه عن وجه له ملامح الاب والام ، يدس يده فـي جيبه ويخرج قرشا او قرشين ويشتري منه مشطا او علبة دبابيس .

لـكن الوجوه الجالسة فـي الترام ليس فيها آباء ولا امهات،وانما تلك الوجوه المتشابهة بقدرة قادر ، المصكوكـة بمطرقة الحكومة كالنقود ، جالسين متلاصقين في صمت ، انصافهم السفلى ثابتة متحجرة فوق المقاعد ،وانصافهم العليا تهتز بحركة بطيئة منتظمة كحركة الترام ، جماجمهم الكبيرة تتذبذب كبندول الساعة ، واكتافهم العريضة (بسبب حشو البدلة السميك) متلاصقة ، والكرافتة ملتفة حول – اعناقهم كالمشنقة ، وحين يقف الترام فجأة تتراجع رؤوسهم الـى الخلف بقوة وترتطم بالترام فينتفضون في مقاعدهم، قابضين بايديهم على رؤوسهم ومحملقين حولهم بعيون واسعة صفراء مليئة بالذعر . وترن في الجو صرخة طفل .

تسقط العيون كالدوائر الصفراء فوق الجسـد الممزق

تحت عجلات الترام ، ومن حوله تناثرت الدبابيس وعلب الكبريت والامشاط ، وفوق الاسفلت تلمع البقعة الحمراء ، تفترش الارض وتتسع الدائرة ــ الحمراء كقرص الشمس ، والعينان الفائرتان تطلان من تحت العجلات الحديدية كحفرنين عميقتين في بطن الارض .

يتحسس كل واحد راسه وعنقه وذراعيه ، وفخذيه ، وحين يطمئن الى ان راسه لا يزال فوق عنقه ، وجسده لا زال في مقعده ،ودمه لا زال في عروقه ،تنفرج الشفاه عن تنهيدة طويلة عميقة ، وتلمع العيون بفرحة خفية ، وقد يصافح بعضهم البعض مهنئين حامدين الله شاكرين فضله لانه مزق تحت العجلات جسدا اخر غير جسدهم ، ويرفعون كفوفهم الى السماء متمتمين بآيات الحمد ، متوهمين انهم يرشون الله بهذه التمتمة فلا يبطش بهم في اي وقت وتظل رؤوسهم فوق اعناقهم الى الابد .

مدت بهية يدها وحركت الجمجمة فاصبحت العينان الفائرتان ناحية الحائط ، واغلقت كتاب التشريح ، ومدت يدها وراء السرير وشدت اللوحة البيضاء ، اسندتها على الجدار وجلست على الشلتة الصغيرة فوق الارض والى جوارها الفرش والالوان .

حجرتها مظلمة تماما الا من دائرة ضوء بيضاء مسلطة فوق اللوحة من لمبةصغيرة،والسماءمن خلال نافذة سوداء ، والليل صامت وابوها نائم ، ولا صوت يسمع ولا حركة ، الا حفيف الفرشاة تروح وتجيء فوق السطح الاملس ، بتلك الحركة الخفيفة باصابعها ، تحرك يدها بارادتها في اي اتجاه،

وترفع جفنيها بكل قوتها من فوق عينيها لتقاوم النوم، وتظل شاخصة الى خطوطها ، وبقع الالوان ، لا تكف عن الحملقة ، ومن حين الى حين تمتد يدها بتلك الحركة الارادية تصفع الوجوه المتشابهة بضربات الفرشاة ، وتنزع باصابعها قناع اللحم المشدود ، وتسحب الجسد الممزق من تحت العجلات، وتكسو الجمجمة النحيلة باللحم وتصبح الحفرتان الغائرتان عينين سوداوين تشبهان عينيها .

في الصبـ ح تفتح عينيها على صوت ابيها الحاد كصوت المنبه ، وترتدي البنطلون الاسود والبلوزة البيضاء ، وتحمل الحقيبة الجلدية المنتفخة وتسير نحو الترام . تدب على الارض بقدميها وتفصل بين ساقيها في خطوتها ، وحين ترى الوجوه المتشابهة في الترام تزم شفتيها في غضب ، وحين ترى زميلاتها يسرن بسيقانهن الملتصقة بتلك الحركة الدورية الغريبة تدرك انهن من فصيلة وهي من فصيلة . وتقف في المشرحة ترفع قدما فوق حافة المنضدة الرخامية ، وتنتصب ساقها الثانية فوق الارض طويلة ، عظامها مستقيمة وعضلاتها مشدودة ، ترمق بطرف عينها سيقان الطلبة المعوجة ، ونظاراتهم السميكة داخل كتب التشريح ، وانوفهم الحمراء المتورمة ، وظهورهم المحنية المنكفئة فوق الجثث، تتلفت حولها في دهشة كالذي ضل الطريق . لكن المشرط بين اصابعها وكتاب التشريح غلافه ازرق ــ ومن فوق التكت البيضاء الاسم : بهية شاهين ، الفصل : اولى مشرحة ، تندهش ، وتحرك المشرط من اعلى الى اسفل في كتلة اللحم الغارقة في الفورمالين ، ويصطك المشرط بشيء صلب ، اخرجته من

التجويف بطرف المشرط ، فسقط فوق المنضدة الرخامية محدثا صوتا كقطعة زلط ، شقها المشرط نصفين فاذا بها جلطة دم تجمدت ، واسودت .. ضحكت زميلة من زميلاتها ضحكتها الانثوية المكبوتة وهي تقول : يا خبر ! ظننت انها رصاصة ! مدت زميلة اخرى عنقها ونظرت الى القلب المشطور وتساءلت بدهشة : في القلب رصاصة ؟ واخفت واحدة فمها بكفها وشهقت : يا عيني ! وتنهدت اخرى بصوت مسموع : يا ريتني انا .

ان شيئا من هذه المعاني المألوفة عن الموت لا يمكن ان يوجد في المشرحة . فالموت هنا ليس موتا ، والجثة ليست شخصا ميتا ، وجلطة دم متجمدة كقطعة رصاص في جوف القلب قد تكون شيئا مشيرا لرغبة مكبوتة مدفونة في اغوار النفس ، كأن ينشطر القلب ، او يكف الدم عن دورانه العبثي ويتجمد في العروق . انه الموت الذي يرغبه الانسان ويرهبه ، ويبحث عنه ويهرب منه ، ويتصوره في كل مكان ولا يجده في اي مكان ولا في المشرحة .

التفتت بهية الى زميلتها التي قالت (يا ريتني انا) وسألتها : ترغبين في الموت ؟ فشهقت الزميلة بدهشة واستنكار : الموت ؟ بعيد الشر عني يا اختي . وادركت بهية المأساة ، وعرفت لماذا يخفي الانسان رغباته الحقيقية ، لانها الرغبات العنيفة الساحقة في عنفها ، ولان الانسان لا يريد ان ينسحق فهو يفضل الحياة الفاترة بغير رغبات حقيقية .

وامسكت بهية بهذا الطرف من الخيط ، وبدات تسير نحو الطرف الاخر ، وهي تدرك انه ليس هناك طرف اخر ،

وانما هي الهاوية السحيقة بعينها . لمت مشارطهـا وادوات تشريحها في الحقيبة الجلدية وخرجت من المشرحة . سارت في الفناء بخطواتها الواسعة السريعة وفي كل خطوة يتزايد احساسها بالقرب من الخطر ، ودت لو تستدير وتعود الى المشرحة لكنها مشدودة ، باحساس خفي ، الى هـذا الخطر بعينه ، الى هذه الحافة على شفا الهاوية .

بهية ! رن الاسم في اذنها فانتفضت ، وفي انتفاضة جسدها ادركت ان لها جسدا خاصا يمكن ان تحركه وتهزه فلا يهتز معه الكون ، وان لها اسما خاصا ، حين يرن في الجو تنتفض . في كل مرة تسمع النداء تندهش . اية قوة خارقة استطاعت ان تميز اسمها من بين الاسماء الاخرى ، واية معجزة تلك التي التقطت جسمها من بين مـلايين الاجساد السابحة في الكون .

حين توقفت وجدت انها لا تزال في فناء الكلية، وانها امام لوحة كبيرة معلقة فوق باب صغير اخضر داكن . هذه الوقفة لم تزد عن نصف دقيقة ، وكانت على وشك ان تستدير وتتجه الى باب المشرحة وتعود الى ما كانت فيه وتظل فيـه الى الابد . لكن نصف دقيقة قد تغير مجرى حياة الانسان . قد تنفجر قنبلة في نصف دقيقة ، ويتغير شكـل المدينـة والارض . الاحداث الخطيرة في الحياة تحدث دائما بسرعة شديدة في ثوان، واحيانا في غمضة عين ، اما الاحداث التافهة فتحدث ببطء ، وفي وقت طويل قد يمتد طول العمر .

حين رفعت عينيها من فوق اللوحة ادركت ان احـدا امامها ، ليس اي احد ، وانما هو هذا النوع من البشر، الذي

لا يمكن ان تمر عليه عيوننا دون ان تتوقف وربما لا تتوقف الا بضع ثوان أو ثانية واحدة،بسبب ضيق الوقت اوالتحرج من الحملقة الطويلة ، لكنها تكفي لان تجعل هذه الملامح امـام عيوننا الى الابد . استطاعت بعد ان مرت الدقيقة الاولى أن تتغلب على المفاجاة وان تقوى على الحملقة . وبـاستطلاع غريزي بحثت في الملامح غير العادية عن السبب الذي جعلها غير عادية . ورات الجبهة عادية والعينين عاديتين ، والانف عاديا والفم عاديا . ودهشت كيف يتكون من مجموع هـذه الملامح العادية ذلك الوجه الغريب غير العادي .

في تلك اللحظة كان قد اصبح امامها تماما ،يضع قدمه اليمنى على عتبة باب المعرض ـ وكاد يصطدم بها لولا انه رفع راسه ورآها ، وحينما التقت عيناها بعينيه ادركت ان سر غرابة الوجه هو في حركة العينين حين تنظران ، فهي حركة غريبة ، تختلف عن حركة عيون الطلبة حين ينظرون . عيونهم تبدو وكانها لا تنظر ، وكانها لا تفعل شيئا ، وانما هي مفتوحة فحسب ، كمرآة تنعكس على صفحتها الاشياء . وبمعنى اخر عيون الطلبة ، لا تمارس النظر الحقيقي ، وبالتالي فهي لا ترى الاشياء او لا تراها على حقيقتها .

حينما تحركت عيناه امام عينيها احست انه يراها . وانها لاول مرة تصبح مرئية بعينين اخريين غير عينيها. امام المرآة فقط كانت تدرك انها مرئية بعينين سوداوين همـا عيناها . وفي الشارع او في الترام او في الكلية ترى العيون عاجزة عن رؤيتها ، عاجزة عن تميزها من بين الالاف ، وانها تضيع وسط الاجساد المتشابهة ، ولا شيء ينتشلها من الضياع

الا يدها حين تلاسس جسدها ، وتعرف عن يقين ان لها جسدها الخاص ، وعينيها حين تلوذان بخطوطها فوق اللوحة البيضاء ، وتصبح حركة يدها مرئية ، وخطوطها واضحة ، منفصلة عن الكون بحدودها الخارجية ، واستدارتها الخاصة بحركتها الارادية القوية ، تحطم بها الارادات الاخرى ، وتنزع الغطاء عن الجسد وتشد القناع عن الملامح ، وتخلع «التكت» البيضاء بالاسم المستعار من فوق الغلاف الازرق .

رأت عينيه الغريبتين تفحصان وجهها كما تفحصه هي في المرآة ، وتنفذان من خلال عينيها الى السرداب الطويل الضيق في اعماقها . ان لحظة اخرى واحدة كافية لان يصل الى النهاية . لكنها حركت رأسها الى الناحية الاخرى. كانت تخاف من الوصول الى النهايات . تستشعر خطر الوصول، وتدرك استحالة العودة الى حيث كانت ، وانها بطريقة سحرية ستصبح انسانة اخرى غير بهية شاهين ، اي انها ستصبح نفسها الحقيقية .

لم تكن تعرف بدقة ما هي نفسها الحقيقية ، لكنها كانت تعرف عن يقين انها ليست بهية شاهين ، طالبة الطب المجدة حسنة السير والسلوك ، هذه الفتاة السمراء الشاحبة التي تقف مترددة امام الباب .

ان كلمة مترددة هنا غير دقيقة ، وغير صحيحة ايضا. فالحقيقة انها لم تتردد لحظة . كانت مشدودة برغبتها المبهمة في السير الى الامام وعدم التوقف ، والوصول الى النهاية الخطرة . تدرك انها ذاهبة اليها لا محالة ، فهي مصيرها . وانها ليست ذاهبة ذهابا عاديا ،وانما هيمدفوعة دفعا بشدة

رغبتها في معرفة مصيرها . وبتـدذ الخوف من هذه المعرفة الى حد الاندفاع في الاتجاه المضاد .

لو كانت بهية شاهين حقيقة لاستدرات وسارت خطوة الى الوراء ودخلت المشرحة واصبح اليوم كالامس ، كالغد ، ولسقطت في دوامه الايام العادية ، والحياة العادية، والوجوه العاديه . لكنها لم تكن بهية شاهين . كانت انسانـة اخرى شيطانية لم تلدها امها ولا ابوها . ملامحها تشبه الملامح التي تطالعها في المرآة ، ولكنها اكثر حدة ، والعينان سوادهما اكثر سوادا ، والانف ارتفاعه اشد ارتفاعا . والبشرة سمراء ليست شاحبة ،وانما هي متقدة حمراء بلون الدم .

لم تكن بهية شاهين تعجبها . كانت ترى عيوبها بسهولة، وتكره ذلك الصوت المطيع المؤدب ، وتضيق بتلـك النظرة الهادئة الوادعة التي لا تنظر الى الاشياء وانما تترك الاشياء تنعكس عليها كصفحة ماء . وتكره ذلك الانف الذي لم يرتفع بدرجة كافية ، وتزدري ذلك الشحوب الذي تعرف سببـه الحقيقي ، فهو شحوب البشرة حين يهرب منها الدم بسبب الخوف الذي يحاول الانسان ان يخفيه .

كانت بهية شاهين تخفي خوفها بتلك البشرة الشاحبة. لكن بشرة بهية شاهين لم تكن تخدعها . كانت تعرف اعماقها الحقيقية ، وتدرك كيف تخاف ومن اي شيء تخاف .

بهية شاهين كانت تخاف من نفسها الحقيقية ، مـن هذه الانسـانة الاخرى التي تعيش داخلها ، تلك الشيطانـة التي تتحرك وتنظر الى الاشياء بكل قدرتها على الرؤية، ولانفها ارتفاعة حادة غريبة ، كحد السيف ، تشق به الكون نصفين

وتمشي الى الامام ، الى الامام بغير رفق ، ولا تردد ، لتصل الى النهاية ، نهاية النهاية ، وان كانت هي الهاوية السحيقة ذاتهـا .

لكن بهية شاهين كانت تتردد ، تتوقف في المنتصف ، تخاف من النهايات ، فالنهاية في نظرها هي النهايـة ، هي الذروة الشاهقة المخيفة ، هي النقطة المعلقة فـي الفضاء لا شيء امامها ولا شيء خلفها ، القمة الساحقة ومن بعدهـا الفناء .

في منتصف الطريق كانت تقف ، تعرف انها واقفـة ، لكنها آمنة في تلك النقطة المتوسطة، نقطة الوسط في الحبل المشدود حيث تتعادل قوتا الشد ، نقطة الصفر . قوتهـا تساوي صفرا ومقاومتها تساوي صفرا . هي نقطة السكون الكامل والامن الكامل الذي لا يهدده شيء . بمعنى اخر هي نقطة الموت .

لم تكن بهية شاهين تعرف انها تقف في جوف المـوت ذاته ، وانها ميتة لا محال . عقلها كان عاجزا عن ادراك هذه الحقيقة . كانت تظن بطريقة ساذجة مضحكة انها ستنجو او ان في استطاعتها ان تنجو بالابتعاد عن الخطر ، بالامتناع عن الحركة نحو الحياة الخطرة. لم يكن عقلها قادرا على ادراك انها في قلب الخطر ، وان اي حركة انما هي حركة نحو النجاة ، نحو الحياة ، لكنها لم تكن تعرف كيف تنقذ نفسها ، ولمـاذا تنقذ نفسها ، وبمعنى اخر لم تكن تعرف ما الهدف من حياتها.

حين حركت رأسها الى الناحية الاخرى ابتسم ، تلك الابتسامة الغريبة . لم ترها في تلك اللحظة . همس بصوت

خافت :

ـ بهية شاهين ؟

فاجاها السؤال ، فتعلثمت لكنهـا تداركت الخطـا بسرعة ، ورات الاسم فوق اللوحة البيضاء ، فردت بصوت متردد :

ـ نعـم .

ومد يده اليها وصافحها قائلا :

ـ سليم ابراهيم .

اول يد تلتف حول يدها . كفه بحجم كفها واصابعـه طويلة رفيعة كأصابعها . يد حقيقية بلحمها ودمهـا ، تسري حرارتها في كفها وتؤكد حقيقتها لانها من نفس حرارة يدها، وحركة الدم في عروقها لها تحت الجلد ذبذبة ، كذبذبـة النبض فوق معصمها ، وكذبذبة الارض تحت قدميها، والهواء من حولها .

حملق في عينيها السوداوين المتسعتين بذعر لا يحدث الا عند الاحساس بالخطر ، فاتسعت عيناه بذعر مشابه، لكنه تدارك الخطا بسرعة ، وعادت عيناه الى حجمهما المألوف ، واجتازا في نصف دقيقة ما يجتازه الرجل والمراة للتعارف في نصف قرن .

قال لهـا :

ـ اهنئك على المعرض .

احمر وجهها بخجل مفاجىء ، وتعلثمت :

ـ لا زلت في البداية .

لم يكن بالمعرض الا ثلاثة او اربعة طلبة . كانوا فـي

الكلية بالآلاف ، ولكن ماذا يهم طلبة الطب في معرض للرسم؟ بماذا تفيدهم لوحة او قصة او قطعة موسيقى ؟ لا شيء يهم الا المشرحة والمحاضرات التي تحفظ وتدون في ورقة الامتحان، ثم تتسرب من الذاكرة من بعد .

وقفا امام لوحة واحدة متجاورين . قامته طول قامتها، وكتفه بحذاء كتفها ، وذراعه بحذاء ذراعها ، وساقه بطول ساقها . لم يكن يفصل بينهما الا مسافة صغيرة . مسافة من الهواء لا تزال تمر بينهما وتفصل جسديهما . مسافة طويلة بطول قامتها لكنها رفيعة كالشعرة . شعرة من الهواء، ورغم كونها هواء ،بل لانها هواء،فهي مسافة عازلة من مادة اخرى غير مادة جسديهما ، ورغم كونها رفيعة جدا ، بل لانها رقيعة جدا،فهي حادة جدا كحد السيف تفصل الجسد عن الجسد وتقطع اللحم .

دهشت الدهشة نفسها التي تحدث في الاحلام ، حين تحدث اكبر الاحداث في ثوان ويقابل الانسان الغرباء فيعرفهم ، والاموات فيصافحهم ، ويطير في الجو بذراعيه وساقيه ،ويغوص الى قاع البحر دون ان يغرق ،ويمشي على الحبل الرفيع دون ان يسقط ، وتنهدم البيوت في ثانية ، وتنبني البيوت في ثانية ، ويصبح اي شيء ممكنا وفي غمضة عين .

تعودت على هذه الدهشة في احلامها ، ولكنها الان يقظة ، عن يقين . حاولت ان تتاكد من يقظتها اليقينية ولكنها عجزت . فليست هناك وسيلة مضمونة للتاكد اكثر من ان تلمس جسدها . ولكنها تفعل ذلك في الاحلام ايضا حين

تتشكك في نومها . وهذا العجز يرعبها ، فهي غير قادرة بحال من الاحوال على التأكد من شيء في حياتها . أن محاولة التأكد لا تفعل شيئا سوى أن تزيد شكوكها .

عيناه السوداوان كانتا ثابتتين فوق اللوحة ، واللوحة سوداء كالليل الدامس ، فيه نقط بيضاء تبدو كالنجوم، لكنها ليست نجوما ، وانما هي فصوص صغيرة من الماس ، ولكنها ليست فصوصا ، وانما هي عيون صغيرة تلمع بدموع شفافة، ليست عيونا ، وانما هما عينان صغيرتان في وجه الطفل النحيل الشاحب ، يسير في الشارع وحده ، اصابعه الصغيرة حمراء متورمة من طرف المسطرة الحاد ، عشرون مرة فوق كل اصبع ، بسبب الحقيبة المفقودة . الرجل الكبير ذو الشارب الطويل شده من ذراعه في ثنية الشارع فوقعت الحقيبة على الارض ، ويذراعيه الصغيرتين وساقيه كان يضرب الساقين الكبيرتين ، لكنهما كانتا قويتين مفتوحتين كفكي القدر ، وهو بينهما منكفيء بوجهه فوق الاسفلت بجوار الجدار ، ومن فتحتي انفه يسيل خيط رفيع من الدم تجلط بعد فترة قبل ان يراه ابوه . لكن اباه نظر في عينيه وادرك من الشحوب ان الدم لا زال ينزف ، ففتش عن الجرح بين ذراعيه ، وبين ساقيه ، وحين راى الدائرة الحمراء واضحة كقرص الشمس رفع كفه الكبيرة في الهواء وصفعه على وجهه .

لمحت اللمعة السريعة فوق عينيه ، وعضلة صغيرة تحت عينه اليسرى ترتجف . فأشارت الى اللوحة الاخرى ، لكنه سألها بصوت خافت :

ـ كنت تبكين وانت طفلة ؟

دهشت وتلعثمت .تذكرت احلامها الطفولية ، والالـه الخرافي واباها ، والشرطي ، والمدرسة ، وحافة المسطرة فوق اصابعها الصغيرة . وقالت :

ـ كانوا يضربونني من اجلواحدة اخرى اسمها بهية شاهين ، مطيعة ومؤدبة .

ضحك ضحكة قصيرة ، ونظر الى اللوحة الاخرى . طلبة الطب بنظارتهم السميكة وكيعانهم المدببة يتزاحمـون حول استاذ يجر عربة وينادي كالبائع المتجول على محاضراته المطبوعة بالبلوظة .وعلى باب الكلية نسوة بالجلاليبالسوداء والطرح السوداء يشددنها حولاعناقهن من وراء جثةخارجة من المشرحة . وعلى محطة الترام رجل اعمى تجره امـرأة كسيحة ومن خلفها اطفال اردافهم عارية . ومن داخل عربات الترام تطل رؤوس كبيرة متلاصقة متشابهة كعملات النقـد المصكوكة ، وعلى ناصية الشارع ربض الشرطي ذو الشارب الاسود الطويل .

همس وهو واقف الى جوارها دون ان يتحرك :

ـ بهيـة .

انتفضت لصوته حين لامس اذنها ، واسم بهية اصبح شديد الخصوصية ،ليس كاسم بهية ، اية بهية ،ولكنها هي بالتحديد ، هي دون الاخرين ، دون الملايين ، بكيانها الخاص هذا الواقف الى جواره ، وبحدود جسمها الواضحة المنفصلة عن الفضاء الخارجي ، وخطوط يدها فوق اللوحة ، تصنـع معالمها وحركتها الخاصة ، حركتها الارادية تنتزعها من بين

فكي الارادات الاخرى .

تلفتت حولها ، كان المعرض قد اصبح خاليا الا منهما، واقفين متجاورين ، غير متلامسين ، تفصل بينهما تلك الشعرة الرقيقة من الهواء .رفيعة جدا وشفافةجداكالهواء، وهزة يد تكفي لتمزيقها ، اية حركة خفيفة تكفي لتبديدها. لكن احدا منهما لا يتحرك ،منهما واقفان جامدان كتمثالين من الحجر ، عيناهما ثابتة كأنما في ذعر ، وبشرتهما شاحبة كانما هرب منها الدم .

كالخوف الذي نحسه في الاحلام ، لكنه خوف حقيقي. تدرك حقيقته من رعشة جسدها المنتصب في وضع رأسي، وبضع قطرات عرق ملموسة في كفها . وبحذر حقيقي حركت قدمها فوق الارض ، ثم حركت القدم الثانية ، وبدأت تحمل جسدها نحو الباب . لكن صوته جاء من خلفها :

ـ بهية .

توقفت . تسمرت في الارض لحظة ، وردت بصوت خافت :

ـ نعم .

ـ الى اين تذهبين ؟

ـ لا ادري .

ـ تعالي معي .

ـ الى اين ؟

باحساس ليس كامل الوضوح ادركت ان هذا الصوت المنتظم المتتابع لقدمين تنتقلان فوق اسفلت الشارع انما هو صوت حذائها . صوت مألوف لاذنها ، كاسمها حين يرن في الجو . لكن عقلها لا يطمئن كل الاطمئنان لاذنها ، وما يبدو مألوفا لاذنها يصبح امام عقلها غريبا شديد الغرابة . فما الذي اتى بقدميها فوق اسفلت هذا الشارع ؟ الشارع لم نره من قبل ، فليس هو احد شوارع القاهرة العادية ، تلك الشوارع المنبسطة في استواء نرى نهايتها امامها في وضع افقي . لكن هذا الشارع ليس افقيا . انه صاعد الى اعلى كطريق فوق جبل شاهق .

تساءلت في دهشة : هل تركنا القاهرة ؟ وحينما سمعت صوته الى جوارها ادركت انها ليست وحدها، وانهما وصلا نهاية شارع القصر العيني واجتازا فم الخليج واتجها الى جبل المقطم . لم تكن اتت الى هذا المكان من قبل ، ولم تكن مشت فوق شارع يصعد فوق جبل كما تمشي الان . كانت حياتها تسير في خط افقي مستو ، بيتها في الدور الارضي تدخله بصعود اربع درجات ، والترام تركبه بصعود درجة او درجتين ، والمشرحة في الدور الارضي ، والمدرج يرتفع عن فناء الكلية بثلاث درجات ، واقصى ما تصعده هو ست درجات لتصعد الى المعمل .

الآن ، شيء غريب يحدث لجسدهما وهي تبتعد عن

الارض . انه يصبح اقل نفلا . كأنها تتخفف في كل خطوة من انقال غير مرئية ، تلتف كالخلخال الحديدي حول رسغيها. وصوت حذائها فوق الاسفلت اصبح اقل حدة ، وقدماها تتحركان وحدهما بخفة ، كانما لم يعودا يحملان جسدها ، او ان جسدها اصبح بغير ثقل ، والهواء من حولها بغير صوت .

صفقت بيديها وهي تجري بمرح : « اول مرة اصعد المقطم ! » وسمعت صدى صوتها يتردد مرة اخرى من سفح الجبل . توقفت ونظرت تحتها . رات المدينة الكبيرة مستوية كالبساط الاخضر والبيوت كالمربعات الصغيرة ، وقدماها داخل حذائها المألوف على حافة الجبل ، والى جوارهما قدمان اخريان داخل حذاء اسود غير مالوف .

رفعت راسها مندهشة ، فالتقت عيناها بعينيه ، عينان سوداوان لهما نظرة ثاقبة غريبة ، تنزع عن وجهها القناع ، وتشد الاغطية عن جسدها وتصبح بهما مرئية . حركت راسها الى الناحية الاخرى فلم تجد الا السماء ومن تحتها الهاوية السحيقة . انتابها الاحساس الغامض الملح بان شيئا خطيرا سيحدث لها . قطعة الطوب تحت قدمها ستنفصل فجاة عن الجبل ويسقط جسدها تشده الارض بقوتها الرهيبة ويتناثر في الهواء اشلاء صغيرة كالذرات . وكما يحدث في الاحلام خيل اليها انها لو قفزت فسوف تنجو بجسدها من قبضة الارض وتطير منطلقة في السماء . ومدت قدما واحدة وكادت تتبعها القدم الثانية وتقفز ، لكن قوة غريبة شدتها الى الخلف . ظنت انها يده ، لكنه كان بعيدا عنها واقفا جامدا

كتمثال ، ذراعاه الى جواره ، وعيناه السوداوان ثابتتان في عينيها ، تنفذان الى السرداب الطويل الضيق في اعماقها ، تريان اعماقها العميقة الخفية ، وذلك النبض السريع المتصل، كنبض الكون في سكون الليل ، تلك الحركة السريعة المجنونة تدفنها في طيات نفسها ، وتلف عليها احشاءها طبقة طبقة ، لتصبح غير مرئية وحركتها الى الابد سرية .

هرب الدم من وجهها فاصبح شاحبا ، واصابعها اصبحت باردة مثلجة ، واغمضت عينيها بتلك الحركة المخادعة التي تعلمتها في احلامها ، ثم فتحتهما ، وادركت انها لا تحلم ، والعينان السوداوان لا تزالان في عينيها ، والسواد ليس اسود تماما ، وانما تشوبه زرقة ، زرقة عميقة بعيدة القاع ، مجهولة الاغوار ، كزرقة السماء حين نحملق فيها بعيوننا المفتوحة ، ونرى كانها غير موجودة ، وتسري فوق الجسد قشعريرة غير مفهومة ، ندرك بها اننا امام ضخامة الكون ، ضخامة رهيبة مخيفة ، ضخامة صامتة ساكنة سكونا مفزعا، لانه ليس سكونا حقيقيا وانما هناك حركة من تحته ، حركة خفية عنيفة تخطف بسرعتها البصر .

واخفت وجهها بكفيها وصرخت بشهقة غير مسموعة :

ــ سليم .

رد بصوته الخافت : نعم .

ــ انا خائفة .

ــ من اي شيء ؟

ــ من الموت .

ــ الموت غير موجود .

ـ ولكنني خائفة .
ـ من الحياة ؟
ـ نعم .
من يراها في تلك اللحظة يلحظ انها ترتعد . لم يكن خوفها كالخوف الذي يبعدنا عن الخطر ، ولكنه خوف اخر يقربنا من الخطر اكثر مما يبعدنا عنه . رغبة جارفة عنيفة في استشعار الخطر حتى ذروته ، حتى نهايته ، نهايته الاخيرة التي تخلصنا منه الى الابد . كالعبء الثقيل كانت تحسه فوق جسدها منذ ان اصبح لها جسد . منذ ان انفصلت عن الكون وانسلخت عن جسد امها في كتلة صغيرة محددة ، تشدها الارض الى تحت ، وتشدها السماء الى فوق ويضغط عليها الهواء من كل جانب ، وجسدها الصغير دائما في قبضة الكون ، بين فكي الاسد ، وعن يقين تدرك ان الفك الاعلى سيهبط فوق الاسفل في لحظة قادمة لا محالة . او تشككت لحظة في هذا اليقين ربما فكرت في الهرب بطريقة او باخرى . لكنها كانت تحمل اليقين فوق جسدها في كل خلية تنبض وتعرف ان اللحظة ستأتي ، وان هذا النبض سيتوقف ، ومن شدة اليقين كانت ترغب في ان تأتي اللحظة ويتوقف النبض وينتهي العبء .
قالت بصوت خافت :
ـ ضمّني بكل قوتك حتى ..
توقفت ولم تكمل . كانت تريد ان تقول حتى يتوقف النبض . لكن رغبتها الخفية في الموت بدت في العلانية كرغبة محرمة ، وادركت بوضوح اكثر لماذا يحرم الناس الرغبات

الحقيقية ويشرعون الرغبات غير الحقيقية .

ان حركة واحدة منه كانت كافية لان تصل بها الى النهاية . لكنها كانت تخاف من الوصول الى النهايات . تستشعر خطر الوصول ، وتدرك استحالة العودة الى حيث كانت ، وانها بطريقة سحرية ستصبح انسانة اخرى غير بهية شاهين ، اي انها ستصبح نفسها الحقيقية .

اصبحت بعيدة عنه ، تسير بخطوتها السريعة الواسعة، عيناها السوداوان مرفوعتان الى اعلى ، سوادهما ليس اسود بما فيه الكفاية ، وذلك الآنف الذي لم يرتفع بدرجة كافية ، والبشرة الشاحبة بسبب الخوف الذي يحاول الانسان ان يخفيه .

جاءها صوته من الخلف :

ــ بهية .

لم تتوقف ولم ترد . صاح بصوت اعلى تردد صداه في جنبات الجبل :

ــ بهيــة .

بدأت تجري مبتعدة عن الصوت ، لكنه احاطها من كل جانب ، فسدت اذنيها بيديها ، لكنه نزع يديها عن اذنيها ، وصاح بصوت غاضب :

ــ لماذا تذهبين ؟

حاولت ان تتحرك ، لكنه سد الطريق بذراعه ، دفعته بكل قوتها فشدها اليه بكل قوته ، رفع وجهها بيده ، واصبحت عيناه في عينيها ، عينان غاضبتان ، سوادهما تشوبه زرقة داكنة مخيفة كزرقة بحر بغير قاع ، وحاولت ان تحرك راسها

الى الناحية الاخرى لكنه ثبت رأسها بيده وقال بصوت غاضب :

- بهية شاهين ستجعلك دائما عاجزة عن بلوغ اية قمة . وتعيشين دائما في منتصف الطريق وتسقطين في قبر الايام العادية ككل الملايين .

صوته كان يرتعد . وتركت يده رأسها فسقط فوق صدرها يهتز ، وعيناها تهتزان ، وكل شيء في حياتها اصبح مهزوزا . هذا الصوت المرتعد سمعته من قبل مرة . بل مرتين ، بل مرات كثيرة ، بل كل يوم حين كانت تجلس في الترام وترى قطع البشر المصكوكة ، وحين ترى الطلبة بنظاراتهم السميكة ورؤوسهم المنكفئة فوق الكشاكيل ، وحين ترى الطالبات بعيونهن المتكسرة وسيقانهن الملتصقة، وحين تسمع المحاضرات وهي تتلى بذلك الصوت المتكرر المتشابه ، وحين يرن جرس المنبه في اذنها كل صباح الرنين نفسه ، وصوت ابيها يناديها النداء نفسه ، ولا شيء لا شيء يقطع هذه الرتابة المستمرة الى الابد .

رغبة جارفة طاغية كانت تتملكها لقطع هذه الرتابة . رغبة في الصراخ بلا سبب لتقطع الصرخة الرتابة . في القفز من النافذة وانكسار ذراعيها او ساقها . في اغماد سكين المطبخ في صدرها لتصرخ من الالم ولتسمع صرختها بأذنها وتدرك عن يقين انها حية وليست ميتة . رغبة جارفة وملحة للاحساس بالحياة الى حد اقتراف جريمة قتل . في ان تقتل جسدها بكامل وعيها وارادتها . كانت تدرك انها ليست جريمة ، وانما الجريمة هي ان يقتل جسدها بغير

ارادتهـا . وعـن يقيـن كانت تعرف ان هنـاك ارادة اخرى تتربص بهـا . وتنتهـز الفـرص ، اي فرص ، لسحقها ، ارادة اخرى تتربص بها . وتنتهز الفرص اي فرص لسحقها، كانزلاقة قدمها على سلم الترام ، او شرودها لحظة وهـي تعبر الشارع ، او انطلاق رصاصة في الجو تصيبها خطأ .

ان موتها بهذا الشكل ، بالصدفة وبغير ارادتها ، يصبح جريمة غير مشروعة . ان الذي يجعل الموت مشروعا هو ان تكون هدفه المحدد ، ان تكون اختياره ويكون اختيارها .

حين رفعت رأسها من فوق صدرها لم تجده . التفتت بسرعة خلفها ، فرأت ظهره يكاد يختفي في ثنية الشارع المتلوي الصاعد . هتفت بصوت عال :

ـ سليـم .

لكنه لم يرد . رفعت صوتها اكثر ونادت :

ـ سليـم .

تردد صدى صوتها في جنبات الجبل عدة مرات، لكن احدا لم يرد .

في حجرتها الصغيرة فوق سريرها اصبح جسدها ممدودا ، وعيناها السوداوان تلمعان في الظلام كفصَّين من الماس ، يمتصان السواد ثم يفرزانه شعاعا ابيض كشعاع الضوء ، وملايين الذرات الدقيقة تسبح في الشعاع وتدور في حركة دائرية منتظمة كحركة الكون الابدية ، كالدق المنتظم في اذنيها يهبط الى عنقها وصدرها ويسري في ساقيها تنميلا خفيفا كسريان الدم ، ويصب في كفيها وقدميها ويتجمع في اطراف اصابعها العشرين كرؤوس الدبابيس . كأرجل النمل الدقيقة تمشي تحت جلدها وفوق عظامها وتكاد تسمع دبيبها كالازيز الخافت المتصل . كملايين الاصوات الخافتة المتصلة التي تصنع صمت الليل .

رفعت جسدها من فوق السرير ، ولامست قدماها العاريتان الارض الباردة فترنحت وكادت تسقط لولا قدرة ساقيها الطويلتين المستقيمتين وعضلاتهما القوية المشدودة ، ترفعان جسدها منتصبا الى فوق ، بتلك السيطرة العجيبة على التوازن ، والسير فوق الارض بتلك الخطوة القوية الثابتة تشق الكون كربان ماهر يمسك بدقة سفينة متينة .

شدت اللوحة من وراء السرير ، وسلطت ضوء اللمبة فوق الصفحة البيضاء وجلست على الشاشة الصغيرة فوق الارض ، تحملق في ذرات العقيق السابحة في الشعاع ، وحينما ضغطت باصابعها على الفرشاة احست برؤوس

الدبابيس تحت جلدها ، وفي كل ضغطة تستشعر الالم كوخز الابر ، لكن يدها لا تكف عن الحركة ، تروح وتجيء فوق اللوحة بتلك الحركة الارادية ، بتلك الرغبة الجارفة الملحة في استشعار الالم حتى نهايته ، في الضغط على اصابعها حتى تنزف دمها وتنسحق ويكف الالم .

رغبة غامضة جارفة ، تهز جسدها ، وتهز الارض من تحتها ، وتسري من اصابعها الى ذراعيها الى عنقها الى راسها كأنما خلال سلك كهربى مشدود ، واصابعها تصبح مشدودة، وعنقها مشدودا ، وراسها ثابتا لا يتحرك .

من يراها في تلك اللحظة يظن انها مصلوبة ، لولا حركة يدها يظن انها ميتة ، او نائمة وهي جالسة . لكنها يقظة شديدة اليقظة . عيناها المفتوحتان تريان ادق خط، تلتقطان النقطة واصابعها بطرف الفرشاة تستطيع ان تشق الكون الاسود بخط رفيع ابيض كالشعرة ، كخط الافق يفصل الارض عن السماء ، والنهار عن الليل ، خط ابيض تشوبه حمرة ، حمرة داكنة قانية بلون الدم .

عيناها حين تريان اللون الاحمر القاني تتسعان ، كذعر العينين امام الدم الحقيقي . ما الذي يخيفها في لون الدم ؟ تحملق في عروقها الزرقاء تحت جلدها ، وتحس ذبذبة النبض المنتظمة المتصلة فوق معصمها ، دقة بعد دقة بعد دقة ، وباحساس غامض خفي يخيل اليها ان الدقة القادمة هي اخر دقة ، وان الصوت سينقطع ، وتكتم انفاسها ، وترهف سمعها ، وتكاد تقبل اللحظة بغير دقة ، لكن اذنيها سرعان ما تلتقطانها ، خافتة ومقبلة بنفس الحركة ، كالدقة

السابقة ، وكالدقة اللاحقة ، كالازيز او الطنين المستمر في اذنها ، ترغب بعنف في ان ينقطع ويتوقف ، وبعنف اشد ترهف السمع في انتظار الدقة المقبلة تخاف الا تقبل .

تفتح عينيها في الصباح على صوت المنبه ، وعينا ابيها الكبيرتان من فوق السرير ، تشدانها خارج السرير ، وخارج حجرتها ، وخارج البيت وتتعقبانها في الترام ، وفي الكلية ، وكفه الكبيرة تدفعها في ظهرها داخل المشرحة .

تقف بجوار المنضدة الرخامية ، على قدم واحدة ، والقدم الثانية ترفعهما في الهواء كأنما ترفس احدا ، ثم تضعها بكل قوتها وكل ثقلها على حافة المنضدة ، وقفة لا تستطيع ان تقفها اية فتاة في ذلك الوقت ، ولا اي فتى . الوحيد الذي يستطيع هو الدكتور علوي ، يمر بين المناضد بنظارته البيضاء ومعطفه القصير الابيض ، وعند منضدتها يقف ، قدم على الارض وقدم على حافة المنضدة بجوار قدمها، وعيناه الزرقاوان تصبحان في عينيها . لكنها لا تطرق . عيناها السوداوان مرفوعتان الى اعلى شاخصتان الى الامام ، تحملقان في الفضاء كأنما تبحثان . تفرزان ملايين الذرات السابحة في الجو ، وتفحصان الكائنات الدقيقة العائمة في الكون ، وتبحثان بين آلاف الكتل المتشابهة عن الوجه غير العادي ، عن العينين اللتين تنظران اليها فتصبح بهما مرئية. العينان السوداوان اللتان تلتقطان وجهها من بين الوجوه ، وتنتشلان جسدها من بين ملايين الاجساد الضائعة في الكون .

لكن الوجوه كلها متشابهة في المشرحة ، وفي الشارع

وفي الترام ، وفي فناء الكلية الواسع المزدحم تحس انها تغرق في بحر وحدها ، دون ان يراها احد ، ودون ان يميزها احد ، وان وجهها اصبح كوجه زميلاتها ، لا فرق بين بهية او علية او سعاد او ايفون . وتجري بغير وعي هاربة من الزحام الى ذلك الركن الصغير المنعزل بحذاء سور الكلية ، وراء المبنى الضخم . تجلس على المقعد الخشبي بغير ظهر ، تجلس محنية الى الامام ، تحملق في قطعة صغيرة من الارض بحجم كف اليد ، لم ينبت عليها العشب الاخضر ، ودون بقية الارض من حولها ظلت طينية اللون ، مشققة ، ومن بين الشقوق الرفيعة تدخل وتخرج ملايين الكائنات الدقيقة بحجم النمل .

بهية ! رن الاسم في اذنها غريبا كاسم واحدة اخرى ، وانتفضت من فوق المقعد . رات امامها العينين السوداوين تخترقان عينيها ، تنزعان عنها القناع وتشقان الغطاء، وتنفذان بغير رفق ولا تردد الى السرداب الطويل الضيق في اعماقها . ان لحظة اخرى واحدة كافية لان يصل الى النهاية .

لكنها هتفت بصوت خافت :

– سليم .

ظل واقفا صامتا ينظر اليها . قالت :

– لماذا تركتني بالامس ؟

عيناه ثابتتان في عينيها لا تتحركان . اخفت وجهها بيديها وبكت بصوت مسموع .

سالها بصوت هامس :

– لماذا تبكين ؟

قالت :

ـ انت لا تحبني بما فيه الكفاية .

قال :

ـ انت لا تحبين احدا بما فيه الكفاية . تخافين مـن الحب كالموت وتقفين في منتصف الطريق ، هذه هي بهية شاهيـن .

صرخت :

ـ لا .

ناولها منديله الابيض فمسحت دموعها . لمعت عيناها السوداوان في ضوء الشمس فابتسم .

سألهـا :

ـ ماذا فعلت ليلة الامس ؟

ردت :

ـ لا شـيء .

سألهـا :

ـ الم ترسمي شيئا جديدا ؟

قالت :

ـ لا .

سكت لحظة ثم سألها :

ـ وماذا ستفعلين الليلة ؟

قالت بصوت خافت :

ـ لا ادري .

وضع يده في جيبه واخرج مفتاحا صغيرا . نا-له لها، وهو يقـول :

ـ هذا مفتاح شقتي بالمقطم . تعالى في اي وقت بعد الثالثة . سانتظرك .

* * *

اختفى بسرعة وراء مبنى الكلية الضخم ، وظلت هي واقفة في مكانها . اصابعها تلتف حول شيء معدني صغير ، راسه مستدير ناعم يتوسطه ثقب ، وذيله له اسنان صغيرة مشرشرة ، تحسستها بطرف اصبعها فسرت فـي جسدهـا قشعريرة ، كحبات الرمل الناعمة الساخنة ، تمشي فـي ذراعيهـا وتهبط الى ساقيهـا ثم تصعد الى راسهـا وتهبط الى عنقها وذراعيهـا وتتركز في كفها المتكور حول ذلكالشيء الصغير .

كأي مفتاح من مفاتيح الابواب ، ولكن تدرك انالاشياء تتغير بتغير احاسيسها ،ومفتاحمعدنيصغير قد يصبح فجأة مفتاحا ذريا او سحريا . يحرك الهواء والضوء من حولـه في ذبذبةدائرية ، وينفث في الجسد حرارة تسري فـوق الجلد كقشعريرة البرودة ، ويتمدد فـوق الكف ضخما يملأ الكف ويزيد ، طويلا بطول الذراع الممدودة ،امتداد الشجرة في السماء ، او الارض المنبسطة الممتدة بامتداد البصر .

احست قطرات العرق في كفها الساخنة تحت الجسم الصلب واطراف اصابعها حين لامست سطحه المعدنياصبحت باردة مثلجة . لفته في منديلها الصغيـر ، ووضعته فـي جيبها ، وبخطوتها الواسعـة السريعـة كوثبات الفهـد اجتازت الفناء المزدحم . حاصرتهـا العيون من كل جانب، فوضعت يدها فوق جيبها لتخفيه ، وكأنه قادر على انيشق

بمعدنه السحري منديلها وجيبها ويصبح امام العيون واضحا ومرئيا كقرص الشمس .

* * *

ضغطت بيدها فوق جيبها عن غير وعي ، واتجهت ناحية باب الكلية ، لكنهـا سمعت صوتا ينادي :

ـ بهيـة .

استدارت ورأت الدكتور علوي امامها بعينيه الزرقاوين من خلف النظارة البيضاء ومن حوله بعض الزميلات .

قال بلهجة الاستاذ :

ـ بهية ، أين انت ؟ كنت ابحث عنك .

ارتبكت لحظة ثم قالت :

ـ كنت في حجرة الطالبات .

قال بصوت يكاد يكون امرا :

ـ تعالي معي الى مكتبي خمس دقائق .

همست في اذنها زميلة :

ـ سيضربك على اصابعك بالمسطرة .

ضحكت واحدة اخرى وهي تضع يدها على فمها قائلة :

ـ سيشرحك بالمشرط .

مدت احداهن عنقها وقالت :

ـ سيمزقك اربا .

تنهـدت واحدة :

ـ يا بختك يا ريتني انا .

شهقات ، زفرات ، تنهيدات ، انفاس متأججة برغبـة دفينـة مدفونـة في الجسد كالجرثومة ، تريـد أن تنهش

الجسد نهشا ، وتمزقه ، وتسحقه عن آخره فلا يبقى منه شيء .

دخلت وراءه مكتبه . كان قد خلع المعطف الابيض والنظارة البيضاء ، وعضلات الاستاذ المشدودة ، واصبح كشاباً ، رياضي ،ممشوق الجسم ،بشرته بيضاء محمرة ملوّحة بالشمس ، وعيناه الزرقاوان اكثر اتساعا كأنهما مندهشتان .

ـ ماذا حدث لك هذه الايام يا بهية ؟ألست بهية التي عرفناها .

انتفضت في ذعر كأنه نزع فجأة جزءا من ملابسها وراى منها شيئا خاصا جدا . شيئا كانت تخفيه عن الاعين ، وتحفظه لنفسها . وشدت حول عنقها ياقة البلوزة وقالت بصوت غاضب :

ـ انا ككل يوم .

رد بلهجة الاستاذ الواثق الهادئة :

ـ والتزويغ من المشرحة ؟

قالت :

ـ كنت مشغولة بالمعرض .

قال :

ـ لا يا بهية ، ليس هو المعرض . انت مشغولة بشيء اخر .

انفرجت شفتاها في دهشة ولكنها زمتهما بسرعة كانما في غضب ، واستدارت ناحية الباب لتخرج ،لكنه سد عليها الطريق ، وقال بلهجة الاستاذ :

ـ انت مشغولة بشيء اخر يا بهية .

رفعت عينيها في عينيه الزرقاوين وقالت بحزم :
ـ لا .
وكأنما لم يسمع ردها وسأل بصوت هادىء شديد الثقـة بنفسه :
ـ ما الذي يشغلك يا بهية ؟
وردت مرة اخرى :
ـ لا شـيء .
شيء ما بين الدكتور علوي وبينها ، شيء غير محدد وغير مفهوم ، ولكنه موجود ومحسوس . تحسه فـي عينيه الزرقاوين حيـن ينظـر اليهـا ، وفي صوته حين يحدثها ، وبعض الاوقات تفكر في كنه هذا الشيء ، ماذا يكون . بل انها رأته مرة فيأحلامها .كان يرتدي قميصاوبنطلونا،وجسمه ممشوق كشاب رياضي ، وذراعه مشعرة محمرة ملوحـة بالشمس ، رفعها وحاول ان يضمها لكنها افلتت . استطاع ان يحوطها بذراعيه الاثنتيـن ونزع يدها من فوق شفتيها وقبلهـا . وصحت من النوم وهو لا يزال يقبلها ، وحيـن دفعته بيدها ولم تجد احدا ادركت انها كانت تحلم .ودهشت كيف يفرض الدكتور علوي نفسه عليهـا في احلامها ، مـع انها في يقظتهـا لا ترغبه ، بل انهـا تكاد تكرهه . تكـره عينيه الزرقاوين المقتحمتين ، وتكره ضحكتـه . فهـو لا يضحك كما يضحك الناس ولكنه يضحك بوقار واستاذيـة وقهقهته مصنوعة مبتورة لا تكـاد تسمع حتـى تنقطع . يشعرهم دائمـا انه استاذ ، يعرف مـا لا يعرفون ، ويملـك مـا لا يملكون ، وحركة ساقيه وهو يمشي فوق المنصةكحركة

ساقي الاساتذة بطيئة وواثقة من نفسها الى حد الاسترخاء. واليتـــاه من الخلف مترهلتـــــان بعض الشيء ، بسبب الجلوس لفترات طويلة فوق مقعد وثير مريح .

كانت يده المشعرة المحمرة قد اصبحت فــوق مقبض الباب ، ويده الثانية فوق كتفها ، تربت عليها بحركةالاساتذة حين يربتون على اكتاف الطلبة ، لكــن يده حين لامستكتفها بقيت فوقها ثابتة لحظــة كالضغطــة السريعة ، اوانقباض عضلة باليــد لا اراديــة ، وصوته اعترته رعشة وهو يقول:

ــ بهيــة تعرفين انـــي اهتم بك ..

تداركها بسرعة بنبرة الاستاذ الهادئة الواثقة:

ــ والامتحان اصبح قريبا ، ويهمني ان تنجحي .

على محطة الترام نظرت في الساعـة : كانت الثالثــة والنصف ، دق قلبها دقة عالية ، وامتدت يدهــا تتحسس جيبها . اصطدم طرف اصبعها بالحافة المعدنيــة الصلبــة فابتعدت يدها مرتجفة كأنمــا تحمل في طيات ملابسهاقنبلة، ما ان تلمسها حتى تنفجر ،وما ان تنفجر حتى يتناثر جسدها فوق الاسفلت اشلاء . وجاء الترام بزحامــــــه وضجيجه فابتعدت عن الناس حتى لا يصطدم بها احد . عدلت عــن ركوب الترام وقررت العودة الى البيت سيرا على الاقدام .

اجتازت شارع القصر العيني واتجهت الى شارعالنيل. الشمس كانت منعكسة بقوة على صفحة الماء ، والهواءالدافيء المحمل برطوبة خفيفة منعشة يلمس وجهها برقة .اغمضت عينيها تحت اللمسات الدافئة . طريق الكورنيش كان خاليا في ذلك الوقت من الظهيرة ، ونوافذ البيوت مغلقة بالشيش ، ولا احد امامها او خلفها ، ووقع قدميهــا فوق الاسفلت في

ادنيها واضح بتلـك الدقات المنتظمة المالوفة . لكـن مـا يبدو مالوفا لاذنيهـا يصبح امام عقلها غريبا شديد الغرابة، وهذه الدقات فوق الاسفلت ليست وقع قدميها ، وانما وقع قدميـن اخريين خلفها . استدارت فلم تجد احدا . شعرت بشيء يشبه خيبة الامل . كأنهـا كانت تتوقعه ، او كـأن بينهمـا موعدا ولم يأته . وفي الوقت نفسه كانت تدرك انه ليس خلفها ، وانما هـو ينتظرها في شقته بالمقطم ، في اي وقت من بعد الثالثـة .

رمقت الساعة بطرف عين . كانت الرابعة الا ربعا . صعد قلبهـا ثم هبط بخبطـة واحدة ، وعيناها السوداوان مرفوعتان الى اعلى ، وجهها الطويل النحيل شاحب، وشعرها الاسود القصير متناثر فوق عنقها واذنيها، وكتفاها النحيلتان تحت البلوزة لهمـا استدارة خفيفة ، ونهداهـا الصغيـران يختفيـان ويظهران مع انفاسها الصاعدة الهابطة ، واصابعها الحمراء تلتف حول الحقيبة الجلدية المنتفخة بكتب التشريح.

اصبحت في ميدان فم الخليج . امامها شارع النيـل والكوبري الذي يقود الى بيتهـا في الروضة . وعن يمينهـا النيل ، وعن يسارهـا الشارع الصاعد نحو المقطم . مـن يراها يظن انهـا ستستدير بجسدها ناحية اليسار وتتجـه الى الشارع – لكنها لم تستدر . ظلت واقفة. كانت تدرك ان استدارتها هذه ستعني لها شيئا ضخما ، شيئـا خطيرا . ستعنى انها لم تصبح بهية شاهين ، وانها اصبحت الانسانة الاخرى الاقوى التي بقدر ما تريدها ترهبها .

لحظة خطيرة مخيفة ، تشبه الموت ، بل هي نوع مـن

الموت فعلا ، يموت فيها الانسان ويولد انسان اخر ، لحظة قصيرة يستدير فيها جسدها ناحية اليسار ، لا تستغرق من الزمن الا ما تستغرقه قدم ترتفع فوق الارض ثم تنخفض او جفن ينخفض فوق العين او يرتفع ،ومع ذلك بدت لها كلحظة العمر كله ، ككل السنين التي عاشتها والتي ستعيشها ، ككل حياتها وقد تكورت واصبحت بحذاء قدمها ما ان ترفع قدمها وتخفضها حتى تدوسها وتسحقها كمسحوق ناعم من الرماد .

ولم يعد الشارع عن يسارها شارعا . الشوارع ايضا ككل الاشياء تتغير بتغير نظرتنا لحظة بعد لحظة،وتغير الدم في عروقنا دقة وراء دقة ، وهواء الصدر مع كل نفس جديد ، وماء البحر مع كل موجة . اصبح الشارع طويلابارزا من بطن الجبل كذراع طويلة ممدودة ، ومن فوقها شريط السماء المحصورة بين الجبل والمباني كالذراع الثانية . ذراعان ضخمتان كذراعي الاله الخرافي ، منفرجتان امامها ككفكي القدر ممدودتان في الافق ،بطول الافق،وبعرض الافق، مرفوعتان نحوها ومفتوحتان تنتظران استدارة جسدها نحوهما .

عن يقين كانت تريد ان تستدير ، وتلقي نفسها بين الذراعين الممدودتين ، لكن جسدها قاوم الاستدارة ، ولم تستطع ان ترفع قدمها عن الارض . انتفضت وهي واقفة، فسقطت الحقيبة الجلدية من يدها وتبعثرت كتب التشريح على الارض .

رمقت بطرف عين التكت البيضاء فوق الغلاف السميك

« بهيــة شاهين » اولى مشرحة ، وتقلصت ذراعاها في الهواء، رفضتا ان تلتقطا الكتب ، لكن جسدها انحنى فوق الرصيف فلمت الكتب ووضعتهــا في الحقيبة .هذه الانحناءة كانت كافيــة لان تعيد اليها بهيــة شاهين بكل قوتها وسطوتها ، وتوارت الانسانة الاخرى في سردابها العميق ، وبدأت قدماها تدبان بسرعــة وقوة في الطريق نحو بيتها .

حركة جسمها وهي تسير تبدو حركة قوية منتصرة ، لكن احساسها الحقيقي كان شيئا اخر . كانت تشعر بالهزيمة وحينما رأت بيتهــا من بعيد غاص قلبها ، كسجين مؤبــد مســاق الى السجن ، مساق بقوة كقوة الحديد ، تلتفت حول يديهــا وقدميها ، كالسلاسل تمامــا كانت تحسها حــــول معصميهــا ورسغيهــا وعنقها ، تشدها بغير رفق ولا رحمة الى ذلك البيت الاحمر الصغير .

ومنذ تلك اللحظة لم يعد بيتها هو بيتها ولا حجرتهــا هي حجرتها ، ولا سريرها هو سريرهــا . الاشياء تتغيــر كالانسان ، ليس تغيرا في الشكل فحسب وانمــا في المعنى ايضا . حقيقة الاشياء نحن لا نعرفها ابدا ، ولا نراها الا بمقدار ما نعيها . ان وعينا هو الشيء الوحيد الذي يحــدد شكــل الكــون مــن حولنا ، وحجمه ، وحركته ، ومعناه .

كانت تعي بيتها كالمكان الامن ، تلوذ به من زحام الترام، وزحام الكلية ، وحرارة الشمس وبرد الشتاء ، وتجد فيــه اباها الذي يعطيهــا المصروف اليومي وامها التــي تطعمها ، واخوتها الذيــن ترى في ملامحهم شبها بملامحها ، وكــل شيء من حولها يبعث على الطمانينة .

لكن البيت الان اصبح كالسجن ، وابوها كالسجان ، رابض في الصالة على كرسيه الاسيوطي يرقب حركاتها وسكناتها ، يحاول ان يستكشف من خلف ملامحها خبايا نفسها ، واصابع امها لا تزال بصماتها فوق اوراقها الخاصة في درج مكتبها ، وتحت وسادتها ، تفتش عن اسرارها تبحث عن خطاب غرام او صورة شاب ، وعيون اخوتها من حولها في كل مكان تحاصرها بالاسئلة .الادهى من ذلك تلك الزيارة التي تكاد تكون يومية ، حين ياتي عمها وزوجته وابنه خريج التجارة (والمرشح للزواج منها منذ الطفولة) وتلك الابتسامة البلهاء على شفتيه ، والسعادة الغبية القاتلة.

ادركت عن يقين انها لا تنتمي الى هذه الاسرة ،والدم الذي يجري في عروقها ليس من دمهم . وان كانت رابطة الدم هي التي تجمعها بهذه الاسرة فهي تشك في هذه الرابطة. تشك في الدم الذي يجري في عروقها او الذي يجري في عروقهم . ان امها لم تلدها . ربما وجدوها لقيطة بجوار جامع بل لو كانت امها هي التي ولدتها حقا ،وان اباها كان مشتركا معها او غير مشترك ، فليس معنى ذلك انها تنتمي اليهما . ان تلك الرابطة التي تسميها رابطة الدم ليست رابطة في نظرها . فهي رابطة بغير ارادة من احد ، وبغير حرية . انها الصدفة المحضة وحدها هي التي جعلتها ابنة امها وابيها بغير اختيار منهما ولا منها .

لم تدر كيف وصلت الى هذا المدى في التفكير . لكنها كانت تريد ان تصل الى حقيقة واحدة هي ان ارادة الانسان وحدها هي التي تجعل للرابطة معنى . وكانت تريد ان تصل

من هذه الحقيقة الى حقيقــة اخرى ، وهي انهــا تريد ان تكــون رابطة بينها وبين سليم ، رابطة من نوع ما ، مــن اي نوع ، تجعله حين يراهــا من وسط الالاف يتوقف ويتجه نحوها ، وتجعلها هي من دون الالاف تتوقف وتتجه نحوه ، ان هذه الحركة الارادية نحوه هي الشيء الوحيد الذي يكسب الرابطــة معنى ، بل يكسبب حياتها معنى ، فما معنى حياتها؟

لم تكــن تعرف لحياتها معنى . لم تعرف بالضبط ماذا تريده بحياتها . كل ما كانت تعرفــه انها لا تريد ان تكــون بهيــة شاهين ، ولا تريد ان تكون ابنة امها او ابيها ، ولا تريد ان تعــود الى البيت ، ولا تريد ان تذهب الى الكلية ، ولا تريد ان تكون طبيبة ، ولا تريد أن يكون لهــا مال كثير ، ولا زوج محترم ، ولا اطفال ، ولا بيت ، ولا قصر ، ولا اي شيء من هذه الاشياء . ماذا كانت تريد ؟

عقل بهية شاهين لم يكن عقلها . كان لها عقلها الاخــر الخاص . تحسه تحت القشرة المخية كبيرا ضخما يملأ جمجمتها ، ينبئها بطريقة شيطانية خفية أن كــل تلــك الاشياء ليست شيئا ، وانهــا تريد شيئا اخر ، شيئا مختلفا تماما ، مجهولا ومعلومــا في نفس الوقت ، محددا وغير محدد ، تستطيع ان ترسمه بسن الريشة فوق الصفحة البيضاء خطا اســود محــددا ، ولكنها حين تنظر اليه بعينيهــا الســوداوين يصبح خطــا طويلا ممدودا في الافق ، بطول الافق ، وبعرض الافق ، لا تعرف له اولا ولا اخــرا .

كالتائهة كانت تسير من شارع الى شارع ، كذرة هواء ضائعــة بيــن ملاييــن الذرات السابحة في الكون ، تاركــة

نفسهـا للهواء يحركها في اي اتجـــاه ، تبدو من الخارج كالمستسلمة تماما للضياع ،كالمستمتعة بالذوبان والفناءالكامل في الكون ،لكنها من الداخل تقاوم ،تشد عضلاتها وتقـاوم الحركة اللاارادية ، ترفض الاستسلام لها ، وبكـل قوتهـا تمنع قدميها من الحركة ، بكل قوتهـا تريد أن تقف .

كالحصان الجامح وجدت نفسهـا واقفة بجسدهـا الطويل النحيل منتصبا ، عيناها السوداوان مرفوعتان الـى اعلى ، وشعرها الاسود متناثر فوق جبهتها واذنيها وعنقها من الخلف ، وانفهـا مستقيم حاد ، وشفتاها مزمومتان في غضب .

تلفتت حولها لتعرف اين هي . لكنها كانت في مكان لـم تأت اليه من قبل. والبيوت لم ترها والناس من حولها يروحون ويجيئون في حركة المرور الدائبة ، ولا احد يعرفهـا ولا هي تعرف احدا . صعـد الدم الى قلبهـا في دقة كبيـــرة وتلاحقت انفاسها كالذي يغرق في بحـر ، وكأنمـا تحولت الحياة كلهـا من حولها الى سيولة دائمة ، من تحتها مـــاء ومن فوقها ماء ، ولا تستطيع يداها او قدماهـا ان تمسك بشيء صلب .

باصابع مرتجفة مذعورة حركت يدها كالـذي يبحث وسط الماء عن قارب نجاة ، وحينمـا لامس اصبعها الحافـة الصلبة في جيبها التفت اصابعها الخمسة حول المفتاح المعدني ، وضغطت عليه ، كأنما تريد ان تتأكد من حقيقة وجوده ، او كأنمـا تستمد من صلابته احساسا بأن في الحياة شيئا لـه قوام ، شيئا يمكـن الامساك به في الاصابع .

وبالسرعة نفسها ، وبالقوة نفسها ، التي يندفع بهـــا الجسـد الفارق حين يمسك شيئا صلبا اصبح جسدهايندفع، وقدماها تدبان فوق الاسفلت بقوة وبسرعة ، وعيناها تبحثان في الشـــوارع المتداخلة المتشابكة عن الذراع الممدودة من قلب الافق ، والسماء الزرقاء المحصورة بيـــن البيـــوت والجبل . كادت تجري ،بل انها جرت فعلا . وبحركة سريعة من عينيها نظرت الى معصمها . كانت الساعة الرابعة والنصف . صعد قلبهـــا ثم هبط ، وصدرهـــا اصبـــح يعلو ويهبط ، يعلـــو ويهبط وقدماها تتلاحقان كأنهما في سباق مع انفاسها .

انفتح الباب الصغير الذي يتدلى فوقه غصن لبلاب اخضر، ورات الوجه الطويل النحيل بملامحه العميقة المستغرقة الى حد الارهاق ، كأنه لا ينام ، ولا يأكل ، وراسه ينوء بهموم العالم والبشر ،وعيناه الزرقاوان العميقتان الى حد السواد او السوداوان الى حد الزرقة ، ونظرته النافذة تقتحم الاغطية والاقنعة وتصل الى القاع البعيد .

ـ اهلا بهية .

دهشت لصوته حين لامس اذنها ، واسم بهية اصبح شديد الخصوصية ، ليس كاسم بهية اي بهية ، بل هي بالتحديد ، دون الملايين ،بكيانها الخاص هذا الواقف في الصالة الغريبة .

الصالة تكاد تكون عارية بغير اثاث ، الا كنبة كبيرة في الركن ومنضدة عليها زهرية ورد والنافذة الزجاجية الكبيرة من ورائها الجبل الضخم . جلست على الكنبة ، واستدار هو ليغلق الباب خلفها ، فاصبح ظهره امام عينيها، ووجهه وعيناه وملامحه لم تعد مرئية ، فبدا كرجل غريب لا تعرفه. وحينما سمعت صوت الباب يغلق تذكرت على الفور انها بهية شاهين ،طالبة الطب المجدة ،حسنة السير والسلوك ، وانها اصبحت الان بالتحديد في بيت رجل غريب، ظهره كظهور الرجال ،ولا شيء يربطها به . ودهشت الدهشة

التي تحدث في الاحلام ، حين يجد الانسان نفسه في أماكن غريبة لم يعرفها من قبل، ويقابل اشخاصا غرباء لم يقابلهم من قبل .

وبدأ عقلها يعمل بسرعة الحركة في الإحلام ، مصورا لها اشياء كثيرة . تصورت اباها قابعا في كرسيه الاسيوطي في الصالة يحتسي قهوة الصباح ، يفتح الجريدة فوق الصفحة الاولى فيرى جسد ابنته بهية عاريا ومقتولا في شقة شاب اعزب بمدينة المقطم . ابوها كان يؤمن ان بهية لا تعرف الا الطريق من البيت الى الكلية ، وانها تصلي وتصوم ،وتذاكر في اليوم اربع ساعات ، وحين تسمع اغاني الحب في الراديو تغلقه ، وحين يضحك معها احد شباب الاسرة تنهره، وانها ليست كأية فتاة اخرى ، جسمها ليس كجسم اية فتاة اخرى ، بل انها ليس لها جسم، وليس لها اعضاء ، وبالذات تلك الاعضاء الجنسية التي يمكن ان يثيرها أو يحركها واحد من الجنس الاخر .

خيالها عجز عن تصور الصدمة ، حين يرى ابوها جسد ابنته المطيعة المؤدبة عاريا ، ليس في حجرة نومها الخاصة مثلا ،وانما في شقة شاب وليست عيناه فحسب هما اللتان تريانها وانما الاف العيون التي تقرأ جريدة الصباح ، ومنها عيون افراد الاسرة العريقة الكبيرة المنتشرة في القطر من اسوان الى الاسكندرية ، وخاصة عيون الفلاحين منهم والصعايدة ، وعيون موظفي وزارة الصحة جميعا ، رؤسائه ومرؤوسيه الذين اقنعهم على مدى ثلاثين عاما انه المدير الكفء ذو الاصل العريق والسمعة

الشريفة ، وابناؤه وبناته جميعا نجباء حسنو السير والسلوك وخاصة بهسة طالبة الطب المجدة .

ارتجفت الرجفة ذاتها التي تحدث في الاحلام ،وايقنت انها على استعداد لان تدفع عمرها كله من اجل ان تمنع عن ابيها هذه الصدمة ،وانه من الممكن ان تموت ويتعرى جسدها ويتمزق اربا بشرط الا يرى ابوها ولا يعرف . كانت تحب اباها رغم كل شيء ، وحين يمد لها يده كل يوم بالورقة البالية ذات العشرة قروش يغوص قلبها في صدرها ثقيلا كقطعة حجر ، وحين تضم اصابعها الورقة الندية برائحة عرقه تكاد تخفي وجهها وتبكي . كانت تعلم انه يكد ويشقى من اجلها واجل اخوتها ، واحيانا تراه وهو يشق الزحام بجسده النحيل ذي الظهر المحنى ، وحين يجتاز الشارع المكتظ بالعربات السريعة ترتجف خشية ان تدهمه عربة . وذات مرة راته واقفا على سلم الترام من شدةالزحام، وخيل اليها ان السلم سيهوى تحت الاقدام الكثيرة ويصبح جسد ابيها تحت العجلات . وذات مرة ذهبت الى مكتب ابيها في الوزارة ، فلمحته في الردهة يسير خلف رئيسه، ظهره اكثر انحناء ،وعضلات عنقه اكثر ارتخاء ،وراسه يميل الى الامام في خضوع ، ورئيسه يسير امامه بحركةمتعالية تجعل ظهره مشدودا وعضلات عنقه مشدودة وراسه مائلا الى الوراء في كبرياء . في تلك اللحظة ارادت ان تنشقالارض وتبتلعها ، وحين ركب ابوها الترام الى جوارها وابتسم لها لم تبتسم له ، وظلت تتفادى النظر في عينيه حتى اتى اليوم التالي ، وحين مد لها يده بالورقة البالية المبللة بعرقه

كـادت ترفضها ،لكنها اخذتها وشعرت بالمهانة ، وبصعوبـة شديدة رفعت عينيهـا في عينيه ، ورات سوادهمـا يترقرق من تحت دمعة شافة غير مرئية .

* * *

انتفضت لتقف ، وقبل ان تصبح واقفة تمامـا كان قد استدار ، واصبح وجهه امامها ، وعيناه في عينيهـا فسرى في كيانها ذلك التيار السحري الذي يشعـرها على الفـور ان كل شيء في الزمـان والمكان خارج هذه اللحظة بلا معنى وبلا وجود حقيقي ، وأن حياتها كلها من خلفها ومن امامهـا ليست حياتهـا وانما حياة انسانة اخرى ، ولا شيء يربطها بالعالم الذي عاشت فيه ، او الناس الذيـن عرفتهم ، لا شيء يربطهـا بشيء سوى هذا الوجه بعينيه السوداويـن الزرقاوين تنظران في عينيهـا وتؤكدان وجودها الحقيقي .

ـ سليـم .

رن صوتها في الصالة غريبا ، كصوت واحدة اخرى ، فاندهشت ، والاسم ايضا « سليم » اصبح في اذنها غريبا كاسم واحد اخر . رددته بينها وبيـن نفسها عدة مرات لتألف ذبذباته في اذنها ، وفي كل مرة يصبح اكثر غرابة عن المـرة السابقة . اسمه سليم واسمها بهية ، واسمه ليس اكثرغرابة من اسمها حين يرن في اذنها . لكـن مـا ابعد الاسماء عن حقيقة الاشياء ، ومـا اعجز حواس الانسان عن ادراك مـا يحسه الانسان !. ان ما تحسه هي نحوه هو شيء اكثر مـن مقدرة اذنيهـا على السماع ، وعينيها على الرؤية، وانفها على الشم ، واصابعها على اللمس .وايقنت في تلك اللحظة ان

للانسان حواس اخرى مجهولة ،لم تكتشف بعد ،وانها كامنة، منكمشة في اغوار النفس ، ولكنها اكثر من الحواس المعلومة قدرة على الاحساس ، فهي الحواس الحقيقية الطبيعية ، لم تفسدها التربية في البيوت، ولا التعليم في المدارس ،ولا النظم ولا القوانين ولا التقاليد ولا اي شيء . كالنهر الطبيعي المنطلق بغير سدود وكالمطر المنهمر من السماء بلا حواجز ولا موانع الى ان يكف وحده حين ينضب .

كانت قد اصبحت جالسة على الكنبة ،وهو الى جوارها وامامها النافذة الزجاجية والجبل من خلفها،ومن خلف الجبل السماء الزرقاء الملوحة بحمرة الشمس وقت الاصيل . انعكس ضوء الشمس على عينيها كالابتسامة اللامعة فضحكت بصوت منطلق وقالت وهي تشير الى النافذة :

ـ المنظر من هنا رائع .

ظنت انه سيحول عينيه عن عينيها وينظر الى النافذة، لكنه لم يفعل ، وظلت عيناه في عينيها ، تلعثمت وهي تقول:

ـ لماذا لا تنظر ؟ اليس المنظر رائعا ؟

قال وعيناه لا تزالان في عينيها :

ـ انت اروع من المنظر .

ابعدت عينيها عن عينيه ، فاندهش وقال :

ـ لماذا تبعدين عينيك ؟

اضطربت وقالت :

ـ لا ادري . ولكن عينيك تبدوان احيانا كانهما ليستا عينيك .

سألها : عينا من ؟

قالت : عينا رجل اخر .
سألها : وايهما تفضلين : انا ام الرجل الاخر ؟
قالت : أنت .
ضحك وضحكت . وقال :
ـ اتشربين شيئا ؟
قالت :
ـ لا .
قال :
ـ اتأكلين شيئا ؟
قالت :
ـ لا .

وضحكت مرة اخرى بغير سبب ، وحين سمعت صوت ضحكتها بأذنيها تساءلت بينها وبين نفسها اتكون هذه اللحظة هي السعادة ، وهل السعادة معناها أن يغيب العالم بكل ما فيه ومن فيه ولا يبقى من الكون اجمع الا تلك المساحة الصغيرة من الكنبة التي تجمع جسديهما متجاورين غير متلامسين بعد ، تفصلهما مسافة من الهواء لا تزيد عن مللمتر ؟

حاولت أن تمسك بلحظة السعادة ، لتعرف مذاقها الحقيقي ، لكنها كانت رقيقة شفافة كطبقة رقيقة من الهواء، ما أن ترفع يدها وتلمسها حتى تتمزق . كانت يدها بجوار يده فوق الكنبة ، تفصلهما شعرة من الهواء ، لكن احدا منهما لم يحرك يده ، وكل منهما يخشى لو تحرك ان تتمزق شعرة الهواء وتتمزق معها لحظة السعادة الرقيقة

كالغلالــة .

لكن كلا منهما كان يضيق بهذه اللحظة ، يتعجل نهايتها، فالسعادة احساس لا يحتمله الانسان الا لحظة واحدة ،تصبح معلقــة في الزمن كذرة هواء سابحة في الكون ، لا الارض تجذبهــا ولا السماء تشدها ، معلقة ، وما اشق على الانسان ان يصبح معلقــا بيــن السماء والارض ، وما اشد رغبته في ان تطــأ قدمـــاه سطح الارض او سطح اي جسد صلب يؤكد وجوده الحقيقي بثقله المعهود .

وكقوة الارض حين تشد اليها الجسد فلا يبقى بينهــا وبينه مسافة من هواء ، التفت ذراعاه حولها وذراعاها حوله، وبتلك الرغبة العنيفة في الذوبان فـــي الكون ، وفقـدان الاحساس بالجسد وثقله والفناء الكامل والتلاشي في الجو كذرات الهواء ــ كالموت اذا استطاع احد ان يموت ويصحــو ثم يصف لنــا الموت ، ولكنه ايضا ليس كالموت تماما . فالموت موت وربمــا فقد الانسان الاحساس حقيقة ، ولكن ان يفقد الانسان الاحساس ولا يفقده ، وان يتلاشى جسده ويظــــل موجودا ، وان يفنى العالم من حوله ويبقى حيا ، وان تصبح السماء كالارض والارض كالسماء ، وكل الاشياء تتشابـــك وتتداخل وتمتزج في شيء واحد او نقطة واحدة ،فيمنتصف الراس ، تنبض بحركة محسوسة كنبض القلب بل اشد .

بأذنيهــا كانت تسمع دقات قلبه ، والصوت حين يلامس اذنيهــا يصبح كدقات قلبها ، وكل شيء فيه حيــن يلامس حواسهــا يصبح كملمس جسدها ، وبصعوبة شديدة يمكنها التعرف على جسدها من جسده ،الحرارة نفسها ،والرائحة،

ولون البشرة ، وحركة الدم في العروق ، وكل شيء فيهما متشابه كأنهما جسد واحد .ارادت ان تهمس في اذنه بكلمة ما ، لكنهـا لـم تجد الكلمة . اتقول له مثلا « احبك » ، ولكـن الكلمة تبدو قبل ان تخرج من شفتيها قاصرة ، عاجزة عما تحسه حقيقة . فمـا معنى كلمة « احبك » ؟

الصمت يستطيع ان يعبر عن حقيقة احساسها، لانها بهذا الصمت تقول شيئا خطيرا ، تقول ان الكلمـات المتداولة بيـن البشر لم تعد تصلح ، وانها في حاجة الى كلمات اخرى، كلمـات تصنعهـا بنفسها ، ولغة جديدة لم تفسرها الكلمات القديمة المستخدمة . وهو ايضـا كان صامتا ، مستغرقـا كأنما يبحث عن سر لحظة الاتصـال الابديـة ، حيـن يكف الجسد عن الاحساس بالانفصال عن الكون ،ويصبح هو والكون شيئا واحدا ، وكيانا ضخما يملأ الساحـــة بين السماء والارض .

حين رفعت عينيها الى فوق رأت الجبل من وراء زجاج النافذة فأدركت ببطء انهـا تعود الى مكانها المحدد فـوق الكنبة ، وتحسست جسدها بيدها ، واكتشفت ان لهـا جسدا خاصا منفصلا عن جسـده ، فاتسعت عيناهـا بالدهشة ، لكنهـا رأته امامها فابتسمت وكـانت تضحـك وقالت لـه :

ــ اليس ذلك غريبا ؟

قال : ما هو الغريب ؟

قالت : ذلك الذي يحدث بيننا .

قال : وما الذي يحدث بيننا ؟

قالت : شيء غريب .

قال : ولماذا غريب ؟

قالت : بهذه السرعة ؟ وبغير كلمات ؟

قال : الحياة الحقيقية ليس فيها زمن،اما الكلمات فقد صنعها الناس ليبرروا حياتهم غير الحقيقية .

ضحكت وضحك هـو ايضـا .

قالت : ولكن كيف يمكننا التفاهم مع الناس ؟

قال : التفاهم مع الناس مستحيل يا بهية . النـاس لا يريدون انسانا حقيقيا . تعودوا تزييف كل شيء حتى انفسهم وبمرور الزمن نسوا شكل انفسهم الحقيقية . وحين يرون انسانـا حقيقيـا تفزعهم حقيقته الى حد الشروع في قتله او قتله فعلا . ولذلك فـلا بد لهذا الانسـان ان يكون مطاردا دائما ، او مقتولا او محكـوما عليه ،او مسجونا ، او معزولا في مكـان بعيد عن الناس .

قالت : في شقة في جبل المقطم .

قال : في شقة في جبل المقطم .

قالت : انا احبك يا سليم .

كانت عيناه السوداوان الزرقاوان شاخصتين نحـو السماء والجبل ، وظل صامتا لحظة طويلة كالمستغرق فـي شيء بعيد . ارادت ان تساله هل تحبني يا سليم ، وتسمـع صوته باذنيهـا يقول احبك يا بهية ، لكـن السؤال بدا لها بلا معنى . فما جدوى الاجابة عنه ؟ هي تحبه واذا كان هـو يحبهـا او لا يحبهـا فهذا لن يغير من حبها شيئا .

قالت : فيم تفكـر يا سليم ؟

قال : ربمـــا يكون لنا صغير بعد سبعة شهور .

انتفضت في رجفة عنيفة ، واهتزت يدها الموضوعةعلى مسند الكنبة ، وادركت ان فوق معصمها عقربين يشيران الى الساعة السابعة والنصف ، وبذلــك الاحساس الراكــد الثقيل تذكرت البيت والكلية واباهـــــا والمشرحة ، وكتب التشريح ، وزميلاتها وزملاءها ، والدكتور علوي ، والترام ، والشوارع ، والناس ، والعالم كله الذي انفصلت عنه وظنت انها لـــن تعود .

تساءلت في دهشة : طفل ؟ لم تخطر الفكرة ببالها قط ، ولم تتصور من قبل ان الاطفال يخلقون بهذه السرعة ، وفي مثل هذه الغيبوبة عن العالم ، والانفصال الكامل عنالارض . ايمكـــن لذلك الجسد الذي ذاب في الكون وتلاشى أن يخلق في لحظة التلاشي جسدا محددا مربوطا بالارض ، وان تلك اللحظـــة اللاموجودة لحظة موجودة ومجسدة يمكن للاصابع ان تلمسهـــا وتمسك بهـــا ؟.

وبدات تحس النبض الجديد في اعماقها ، كحيـــــاة سحرية ولدت من العدم ، كالذي ينظر الى صخرة ثابتة في الجبل وفجاة يراها تتحرك وتنبض بانتظـــام كنبض القلب . وانفرجت شفتاها عن الدهشة نفسها ، والفرحة ،وصاحت وهي تضع يدها على قلبها :

ــ انظر يا سليم .. انه يتحرك .

ورآها تنظر الى الجبل فتساءل بدهشة :

ــ ما الذي يتحرك ؟

قالت وهي تضحك : الجبل .

ضحك معها . لكنها كفت عن الضحك بعـــد لحظة ، وادركت ان فرحتهـا ليست حقيقية . وان الجبل لا يتحرك، وانه ثابت،جامد ، والارض والحائط والنافذة والكنبة وكـل شيء من حولها ثابت جامد ، الا هذان العقربان فوق معصمها بحركتهمـا البليدة البطيئة الرتيبة ، تذكرها ان الزمن يمضي ولا يعـود ، وان لحظات حياتها تسقط في العدم ، وتأتي من العدم ، وان لا شيء يبقى سوى تلك الذبذبة العبثية لعقربين مـــن المعدن داخل علبة معدنية صغيرة بحجم القرش لهـا غطـاء زجاجي .

قالت بصوت حزين :

ـ سليم .

قال : نعم يا بهيـة .

قالت : لا اريـد ان اعود الى البيت .

قال : لا تعودي .

قالت : ولكن . . .

قال : ولكن ماذا ؟

قالت : ابي وامي والكلية والناس و . . .

قال : وبهية شاهين .

احست بقطرات العرق في كفها وتحت ابطيها ، وبشرتها اصبحت شاحبة كبشرة بهية شاهين ، وعيناها اقل سوادا ، وانفهـا اقل ارتفاعا ، وحاولت ان ترفع راسها وتجعل عينيها سوداوين كمـا كانتا وانفهـا مرتفعـا حادا يشق الكـــون نصفين تسير بينهمـا الى الامـام بغير تـردد ، ولا خوف ، وتصل الى النهاية ، نهاية النهاية . لكن بهية شاهين كانت قد

عادت اليها . كيف عادت ؟ لم تعرف . وفجاة وبغير انتدري نهضت ، وامسكت حقيبتها الجلدية المنتفخة وسارت نحـو البـــاب .

حين احتواها سريرها في تلك الليلة ظنت ان الـــذي حدث لم يكن الا حلما . وانه اذا لم يكـــن حلما فلا بد انـــه حادث طاريء اعترض حياتها العادية بغير ارادتها كحوادث القضاء والقدر ، وانها عادت بقدرة قادر الى مكانها المعهود في سريرها ،وجسدها صحيح بكامل اجزائه وحدوده الخارجية المألوفـــة .

ولكن بعقل اخر شيطاني كانت تدرك ان هذا الحادث الطاريء هو الشيء الوحيد الحقيقي في حياتها . انه ليس طارئا ، وليس حلمـــا ، وليس قضاء وقدرا ، وليس صدفة ، ولكنه الشيء الوحيد الذي فعلته بارادتها ، الشيء الوحيد الذي ارادت أن تفعله .

حياتها كلها ليست من فعلها ، وليست بارادتها . فامها هي التي ولدتهـــا ، وابوها هو الذي ادخلها كلية الطب ،عمتها المريضة بالصدر تريدها ان تتخصص في الامراض الصدرية، خالهـــا يريدها أن تكون طبيبة ناجحة ينهال عليها مال المرضى وتتـــزوج ابنه خريج التجارة ، فتربح فلوسها من تجارته ، وينجبان اطفـــالا يرثون ثروتهمـــا ويحملون اسمه واســـم ابيه وجـــده .

كل واحد منهم كان يقول لها ماذا يريده . لكن احـــدا منهم لـــم يسألها ماذا تريد هي . والحقيقة انها لم تكن تريد شيئا ممـــا يريدونه هم . لـــم تكـــن تريد ان تكون طبيبـــة

وبالذات طبية امراض صدرية . كانت ترى طوابير المرضى بالدرن الرئوي كالهياكل البشرية ، واطباء الامراض الصدرية اجسادهم ممتلئة سمينة مترهلة . ولم تكن تحب عمها ، ولا ابنه خريج التجارة . كان شابا وسيما في نظر الإسرة كلها، فهو طويل ممشوق ، ابيض البشرة ،متورد الخدين، عيناه تلمعان بالصحة والسعادة ، وملامحه بريئة براءة الاطفال ، وكأنه لا زال يرضع لبن امه ، ويبتسم للجميع ابتسامة سعيدة .

كانت تكره ابتسامته وسعادته ،وتقابلهما بتكشيرة وشفتاها مزمومتان في غضب ، لكنه لم يكن يغضب ويظن بطريقه بلهاء ،او بغرور الرجال الاغبياء ، انها تخفي اعجابها به تحت هذه التكشيرة ، ويقول لها بصوته المسطح :« انا افهم البنات . البنت تقول لا لكن قلبها يقول ايوه » .

لو كانت تملك ارادتها لبصقت في وجهه ، لكنها لم تكن تفعل اي شيء بارادتها ، وحينما ترى اباها يبتسم له تبتسم هي الاخرى وتقول :« من قال لك انني بنت » .

كانوا قد تعودوا ان يسمعوا منها هذا السؤال . لم تكن يغضبهم ، بل بالعكس كان أبوها يغتبط بعض الشيء ، كأنما يفخر بشعور خفي ان ابنته ليست بنتا ، او يتمنى في قرار نفسه الا تكون بنتا . كانت تعرف ان اباها صادق في غبطته ، وانه كان يريدها ذكرا . لكن امها ارادت شيئا اخر وولدتها انثى ،او لعلها لم تكن امها ، وانما هي الصدفة المحضة التي جعلتها انثى .

كلمة انثى كانت حين تصل الى سمعها ترن في اذنيها

كالسبة ، او كالعورة العارية . كاول عورة رأتها في حياتها. كانت تخجل حين تخلع ملابسها في الحمام ، ولا تستطيع النظر الى جسدها العاري في المرآة ،وحين تقترب اصابعهامن عورتها وهي تستحم تبعدها بسرعة كمن مست يده منطقة مكهربة او محرمة . يد امها حين ضربتها وهي طفلة لا زالت على يدها . اثار اصابعها الكبيرة محفورة في ذاكرتها ، ثابتة فوق الجلد كالوشم ، وصوتها لا زال في اذنيها يردد : « تحرمي .. قولي حرمت » . ولم تنطق كلمة حرمت ، ولم تحرم ، فما الذي يمكن ان يكون في تلك المنطقة المحرمة ؟ وبأصابع مرتجفة كانت تفحص جسمها ، تحس بطريقة ما ان شيئا خطيرا يكمن في تلك المنطقة المحرمة ، لا تستطيع ان تلمسه ، ولا تستطيع ان تراه بعينيها ، لكنه موجود. تحسه عن يقين حين تحرك ساقيها ، وترتعش اصابع امها حين تقترب منه وهي تفسل لها جسمها . شيء لا بد خطير ومخيف . لكنها تحمله في جسدها ،كجزء منها ، لا يفارقها. احيانا تنساه وتظن انه خرافة من الخرافات التي ملأت راسها وهي طفلة ، واحيانا اخرى يصبح حقيقةمؤكدةوعارية، كالسلك الكهربي ما ان تلمسه حتى ينتفض جسمها انتفاضة قوية .

بهية .. دون صوت ابيها في اذنيهـا كطلقة الرصاص. كصوت الحقيقة الوحيد ، ادركت معه انهـا بهية شاهيـن طالبة الطب المجدة ، حسنة السيـر والسلوك ، العـذراء الطاهرة ، التـي لم يمسها بشر ، والتي خلقت بغير اعضـاء جنسيـة .

شدت الغطاء فوق راسها وتظاهرت بالنـوم ، لكنهـا سمعت وقع قدمي ابيهـا في حجرتها تقترب من سريرها، واصابعه الكبيرة ترفع الغطاء عن راسها ، وعيناه تحملقـان في عينيهـا ، ويكتشف مصعوقا انها ليست بهية شاهين، وليست ابنته ، وليست مهذبة ولا مطيعة ولا عذراء ، وانها خلقت باعضاء جنسية ، واضحة ومرئية ، مرئية من تحت الغطاء ، ومن تحت الملابس ، ليست مرئية فحسب ، ولكنها متحركة ايضا ، كحركة الحياة ، نابضة كنبض القلب ،ازاحت في حركتهـا الحاجز الذي كان امامها ، ومزقت الغشاءالذي كان يفصل بينها وبين الحياة ، غشاء زقيـق غير محسوس وغير مرئي ، كلوح من الزجاج يفصلهـا عن جسدها ، ويقف بينهـا وبيـن حقيقتها ، شفاف كالزجاج ترى مـن خلالـه نفسهـا ولكنهـا تعجز عن لمسها او الاحساس بها .كالزجاج تمامـا معرض للكسر عند اي حركة ، واي قفزة .

كانت امها تشهق حين تراها تقفز مـن فـوق السلم القفزة العالية ، وتسمع قلبهـا يدب في صدرها ، وتتقلص

عضلات ساقيها ، وتضم فخذيها بقوة ، وتسير نحو امهـــا بمشية البنات المألوفة ،ساقاها ملتصقتان ، لا تكاد الساق تنفصل عن الساق ، وفي اللحظـــة التي تنفصلان فيها يخيل اليهــا ان شيئا من بينهمـــا سيسقط ، شيئا علـــى شكـــل الزجاج المكسور .

وحين تختفي امها داخل المطبخ تعود الـــى القفز . لا يكفيها القفز من فوق السلم ، فتقف على حافة الشرفة(كان بيتهم في الدور الاول) وتقفز في الهواء وتصرخ من الفرح حين تحس جسمها طائرا في الهواء بغير ثقل ، خفيفا كذرة هواء ، والارض لم تعدتشدها اليها ، وقد تخلصت الى الابد من قبضتها الحديدية . لكنها ليست الا لحظة خاطفـــة ، وصرخة فرح واحدة ، ثم تشدها الارض اليهابقوتها المجنونة وتهبط بسرعـــة كنجم يهوي ، ويرتطم جسدها بالارض كقطعة حجـــر .

كانت تنهض ، وتنفض التراب عن ملابسها ، وتتفقد ذراعيهـــا وساقيها . كل شيءفي مكانه ، وعظامها كما هي لم تنكسر . وتدرك باحساس خفي لكنه يقيني ان امها تخدعها، وان شيئا لا ينكسر في جسدها ، وتقفز وهي تمشي،وتحرك ساقيهـــا بحرية ، وتفصل بينهمـــا بقوة ، وتدرك عن يقين ان لا شـــيء زجاجيا بينهمـــا ،وتصعد فوق الشرفة وتقفز مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وعشرين ، وفي كل قفـــزة يـــزداد يقينهـــا بان شيئا لا ينكسر فيها ، وا نعضلاتها قويـــة ، وعظامها متينة ، وتضرب الهواء بركبتيها في كبرياء كما يفعل اخوها حين يمشي ، وتشد قامتها ، وترفع راسها ، وتصوب

الى الحيـــاة عينيها السـوداويــن مفتوحتيــن وحادتين ، لا يرمش لها جفن . وبزهو غريب تحرك قدميها فوق الارض ، وحين تعف رفع قدما فوق اي كرسي اومنضدة ، ترفعها بكل نفــة فوق اي حافة عالية ، كما يفعل ابوها حين يقف فــي الصالة ، وبالكبرياء نفسها .

وتضربها امها على ركبتها لتخفض قدمها قائلة :« عيب يا بهية ، الا ترين كيف تقف اخواتك البنات ؟ » وتنظر الى اخواتها البنات وترى سيقانهن السمينة الملتصقة ،وعيونهن المتكسرة ، كعينيي الجثة الراقدة فوق المنضدة ، والمشرط في اصــابعهن يرتجف حين يقترب من الرحم ، او عضو الذكر.

كانت تغضب من عيونهن المنكسرة ، وتدرك عن يقين انها لا تنتمي الى هذا الجنس ،وان شيئا فيها لا ينكسر ،وعيناها حين ترفعهما ترتفعان ، وحيــــن تثبتهما تثبتان ، وليست هناك من قوة فوق الارض تستطيـــع ان تجعــل عينيهــا تنكسران .

* * *

في الصباح التالي ذهبت الى الكلية ككل يوم .ودخلت المشرحة ككل يوم . لكن ابدا لم يكن دخولها ككل يوم ، ولــم تكن قدماها هما قدماها ، ولم تكن يدها التي تمسك بالحقيبة هي يدها ، ولم تكـن عيناها اللتان تنظر بهمــا الى الاشياء هما عيناها . من يراها يظـن انهــا هي نفسها التي كانت هنا بالامس واول امس واول اول امس . لكن ابدا لم تكــن هي بالتأكيد . كانت واحدة اخرى مختلفة ، والاشياء اصبحت امام عينيهــا مختلفة . احجامها اصغر مما كانت ، والوانهــا

اخف مما كانت ، وحركتها ابطأ مما كانت . اجسام الطلبة اصبحت اصغر حجما ، وسيقان الطالبات اكثر بطئا . كالزواحف يسرن فوق الارض ، لا تكاد الساق تنفصل عن الساق ، واذا انفصلت عادت والتصقت بسرعة ، بقوة تضم الفتاة فخذيها كأن شيئا ثمينا سيسقط من بينهما في اللحظة التي ينفصلان فيها ، والحقيبة الجلدية المنتفخة بكتب التشريح فوق صدرها ، تخفي تحتها شيئا ثمينا عن عيون الطلبة وكيمانهم المدببة . والطالبة منهن لا تستطيع أن تسير منفردة ، وانما يسرن دائما على شكل جماعات ، كاسراب البط . فاذا ما وجدت الواحدة منهن نفسها منفردة في فناء الكلية او في المدج اسرعت الخطى تطرقع بكعبها العالي لتلحق بزميلاتها وتخبىء جسدها بين اجسادهن .

لمحت الدكتور علوي يمر بين المناضد ، فخرجت من الباب الخلفي للمشرحة . سارت في الفناء الواسع تتلفت حولها كانما تبحث عن احد . دخلت المعرض ودارت حول اللوحات تتامل خطوطها ، وعيناها السوداوان تبحثان في العيون عن العينين السوداوين الزرقاوين والوجه النحيل بملامحه المرهقة المحددة . خرجت وسارت في الفناء بخطوات بطيئة ، تتفحص وجوه الطلبة . وجوه كلها متشابهة ، وحركاتهم متشابهة ، واصواتهم متشابهة ، وعيونهم حين تنظر اليها لا تراها ، وتغرق في البحر دون ان يراها احد ،ودون ان يميزها احد ، ووجهها يصبح كوجه زميلاتها لا فرق بين بهية او علية او زكية او ايفون .

جرت بغير وعي في الشارع . وقع قدميها في اذنها

تعرفه ، والشارع ليس افقيا ككل الشوارع ، ولكنه يرتفع الى اعلى ، وجسدها يرتفع الى اعلى وهي تلهث ، وعيناها مشدودتان الى ذلك البيت الرمادي بلون السحب، مشدودتان باسلاك رفيعة كخيوط حريرية غير مرئية، مشدودتان بكل قدرتها على الحركة ، بحركة الدم في شرايينها ، بحرارة الدم وسخونته كانت تصعد ، بقوة الانجذاب نحو مصيرها ايا كان هذا المصير ، ايا كان ، وان كان هو الموت والفناء الكامل .

باصابع مرتجفة وضعت المفتاح في الباب، ودخلت ، وظلت واقفة في الصالة الخالية ، دقات قلبها في اذنيها وانفاسها تتلاحق ، وصدرها يعلو ويهبط . نادت بصوت خافت : سليم . لكن البيت كان خاليا . دهشت الدهشة نفسها التي تحدث في الاحلام ، حين تتلاشى الاشياء التي تمسك بها في لحظة ، ويختفي الجسد الذي نحوطه بذراعينا في غمضة عين ، وحين نفتح عيوننا لا نرى في الظلام الا الحائط ومن تحتنا السرير .

تحسست بيدها الشيء الذي تحتها ، فوجدت انها الكنبة التي جلست عليها بالامس . مدت ذراعها في الظلام فاصطدم بالحائط الصلب البارد . اغمضت عينيها مرة اخرى وظنت انها تحلم . لكنها لم تكن تحلم ، وعن يقين ادركت ان سليم غير موجود ، وانها وحدها في بيته الخالي ، جالسة فوق الكنبة ويقظة . حاولت ان تتأكد من يقظتها اليقينية ولكنها عجزت . فليست هناك وسيلة للتأكد سوى ان تلمس جسدها . ولكنها تفعل ذلك في

الاحلام ايضا حين تتشكك في نومها .. وهذا العجز يرعبها ، فهي غير قادرة بحال من الاحوال على التأكد من شيء في حياتها . ان محاولة التأكد لا تفعل شيئا سوى ان تزيد شكوكها .

حين فتحت عينيها في الصباح احست ان الذي تحتها ليس ملمس سريرها المألوف ، ورات النافذة الزجاجية ومن خلالها الجبل فانتفضت واقفة . اول ليلة تغيبها عن بيتها ، واول ليلة ترقد في مكان غير سريرها . تصورت اباها يزار كالاسد الغاضب وقد قلب الدنيا بحثا وتنقيبا ، وامها واخواتها وعمها واعمامها وعماتها وافراد الاسرة جميعا انتشروا في الارض كالجراد ، يبحثون عنها ويفتشون .

سارت الى المرآة بخطوات ثقيلة . من كان يراها في ذلك الصباح يدرك انها نامت بملابس الخروج ، وان بياض عينيها تشوبه حمرة خفيفة ، كتلك الحمرة التي تعقب البكاء ،او السهر الطويل . ولم يكن منظرها هذا عاديا . كانت فتاة مثالية ، ملابسها دائما مكوية ، بياض عينيها ابيض صاف ينم عن فتاة مطيعة مهذبة ، تنام الليل في سريرها ، لا تعرف السهر ، ولا تعرف الشجن، ولم تبك في حياتها مرة واحدة .

لم تعرف الى اين تذهب ذلك الصباح . لكن قدميها حملتاها الى الكلية ككل يوم . ورأت الفناء مزدحما بالطلبة، يموج بحركة غير عادية . وشقت الزحام متجهة الى المشرحة، لكن طالبا اعترض طريقها قائلا :

ـ اليوم اضراب . لا محاضرات ولا مشرحة .

ورات زميلاتها يقبلن نحوها بحقائبهن الجلدية المنتفخة وسيقانهــن الملتصقة .

وقالت واحدة :

ــ فلنسرع الى بيوتنا قبل توقف المواصلات .

وسالت واحدة :

ــ وهل ستتوقف المواصلات ؟

وردت اخرى :

ــ يقولون ان عمال الترام والاتوبيس سيشتركون فــي الاضراب .

وسالت زميلــة :

ــ وما سبب الاضراب ؟

وضربتها واحدة على ظهرها :

ــ يا خيبتك القويــة ! الا تعيشين على ظهر الدنيا ؟

وقالت واحدة :

ــ انهم عيال وبعد قليل ينفض المولد ويجري كل منهم الى مذاكرتــه .

وردت واحدة بسخرية :

ــ طلبة الطب لا يهمهم الا المذاكرة والصم ، اما طلبة الحقوق والاداب ، هناك الاضراب الحقيقي .

وضحكت واحدة :

ــ فلنذهب الى هناك .

وشدتها زميلتها ناحية الترام :

ــ فلنذهب الى البيت . الامتحان بعد شهر واحد .

وتجمعن متكئات ، متلاصقات ، وسرن نحــو التــرام

برؤوسهن المطرقة الى الارض ، وعيونهن المنكسرة ، وسيقانهن المتلاصقة في تلك الخطوات الدودية الزاحفة .

وبقيت بهية واقفة وحدها ، ترمق الطلبة المتجمهرين من بعيد ، تحاول ان تلتقط من بين الوجوه الوجه غير العادي ، والعينين السوداوين الزرقاوين القادرتين على رويتها والتقاط وجهها من بين الوجوه . كانت واقفة ، تسند ظهرها الى الحائط ، وتتدلى من يدها الحقيبة الجلدية المنتفخة بكتب التشريح ، وعيناها السوداوان مرفوعتان الى اعلى تبحثان ، وانفها المرتفع الحاد يشق الكون نصفين ، وشفتاها مزمومتان في غضب . لم تكن تحب طلبة الطب وبالذات حين يتجمهورون في اعداد كبيرة . صورتهم وهم يتدافعون داخل المدرج لا زالت في راسها ، بنظاراتهم السميكة ، وظهورهم المحنية ، وكيعانهم المدببة ، وعيونهم المشدودة النهمة لكل شيء له طراوة اللحم .

وفجاة اهتز الكون اهتزازة عنيفة . كصوت زلزال ارتجت له السماء والارض . وادركت بعد لحظة انه ليس صوت زلزال . ولكنه صوت بشري . آلاف الحناجر البشرية تنطق بصوت واحد في لحظة واحدة ، كصوت السماء حين ترعد ، كملايين الاصوات التي تصنع صوتا واحدا ضخما يملأ الكون ، ولا يدخل من الاذنين فحسب ولكنه يخترق مسام الجلد ويغزو جميع فتحات الجسد ، ويصبح كالغاز ينتشر في لحظة ويسري كالدم في كل خلايا الجسم .

مضت دقائق قبل ان يألف جسدها الارتجاجة ، ويألف معها الصوت . لاول مرة في حياتها تسمع هتافا ينطلق

من الاف الحناجر في نفس واحد طويل عريض ، بطـول السماء وعرضها ،قوي كالريح العاتية تقتلع من امامها البيوت والشجر . ولم تكن اذناها من ضخامة الصوت قادرتين على تبين الكلمات . ثم رنت في اذنيها كلمة « مصر » . لم تكن هي مصر التي كانت تسمعها من فم ابيها او امها او احد المدرسين او المدرسات او احد الزملاء او الزملاء او الزميلات ، ولكنها « مصر » بذلك الصوت القوي الضخم، الذي يملأ الكون ويرج السماء والارض. وسرت فوق جسدها قشعريرة ، واحست حركة الشعر فوق جلدها وهو ينتصب، وحركة تحت جفنيها دافئة ناعمة كحركة الدموع حين تتجمع ، وصور قديمة من طفولتها بدأت تتابع امام عينيها مهتزة كانما من وراء ماء متحرك ، صدر امها الدافىء تحت وجهها ورائحة اللبن في انفها ، ورائحة التراب واشجار التين في قريتهم ، ويد ابيها الكبيرة تمسك يدها وهي تجتاز الشارع ، ووجه عمتها الطويل النحيل وهي تسعل وتبصق الدم ، وعيون اخوتها الصفار المغمضة وهم نائمون متلاصقون وافواههم مفتوحة يريلون فوق الوسادة، وعيون الاطفال الجائعة من حول الترعة ، وطوابير المرضى في فناء المستشفى ، ونحيب النسوة بملابسهن السوداء المتربة مندفعات وراء الجثة الخارجة من المشرحة .

ابتلعت الدموع وظلت واقفة . كانت القشعريرة لا تزال فوق جسدها ، والصوت الضخم لا زال يتردد . ومرت المظاهرة امامها . ورأت وجوها غير التي كانت تراها في المشرحة واجساما غير الاجسام التي كانت تندفع داخل

المدرج . فالملامح اصبحت بارزة حادة كالسيف والبشرة محتقنة بالدم ، والعيون مرفوعة الى اعلى، والظهور مشدودة بغير انحناء ، والسيقان مشدودة مستقيمة عضلاتها قوية، والاقدام تدب على الارض وتهز السماء وتهز الشجر .

ووجدت نفسها بينهم كقطعة منهم - كجزء من جسد ضخم ، حرارته من حرارتها ، وملامحه تشبه ملامحها ، وبشرتها محتقنة بالدم ، وانفها حاد يشق الكون ،وعيناها شاخصتان الى الامام ، وراسها مرفوع ، وظهرها مشدود ، وساقاها عضلاتهما قوية ، وقدمها تدب على الارض ،وتهز الارض ، وصوتها ينطلق وحده من حنجرتها قويا ضخما يملأ الكون ، وبكل ما تملك من قوة تهتف : « الحرية لك يا مصر ! » .

احساس غريب بالذوبان في الكون الضخم ، في الجسد اللانهائي الممتد ، في ان يصبح الانسان جزءا من كل، ويذوب في كل ما حوله كقطرة ماء في بحر ، وذرة هواء في الجو . احساس غريب ،له طعم لذيذ في الفم ، وسعادة طاغية ينتشي لها الجسد ، كالنشوة التي احست بها بالامس ، في ذلك المكان البعيد في حضن الجبل ، كنشوتها وهي طفلة حين كانت ترى الاله الخرافي يضغط على الشيء ثم يفتح يده فاذا هي فارغة ، وضحكتها الطفولية حين كانت امها تضغط عليها بكل قوتها ويكاد جسداهما يصبحان واحدا .

رغبة كامنة في جسدها ، قديمة منذ الطفولة ، منذ ان اصبح لها جسد خاص منفصل عن الكون . رغبة ملحة في ان يعود جسدها الى الكون ، ان يذوب الى اخر ذرة ، ان

تتحرر وتصبح بلا جسد ، وبلا ثقل له وزن ، كالروح الخفيفة الحرة المحلقة في اي مكان واي زمان بغير قيود تشدها الى الارض .

رغبة في حرية طاغية لا محدودة ، لا يحصل عليها الانسان الا في اللحظة التي يقرر فيها الخلاص ، ويمزق تلك الشعرة التي تفصل الحياة عن الموت ؛ لا يرهب الموت، وحين يكسر الانسان رهبة الموت يصبح قادرا على اي شيء في الحياة ، وان كان الموت ذاته .

واحست في تلك اللحظة انها قادرة على اختراق الحديد بجسدها ، وتلقي الرصاص في صدرها ، والخناجر المسمومة وغير المسمومة،وان اي قوة في العالم لا تستطيع ان تجعل جسدها يسقط ، او ساقيها تتوقفان عن الحركة الى الامام ، او صوتها يكف عن الانطلاق مناديا بالحرية .من ينظر الى وجهها في تلك اللحظة ير في سواد عينيها القرار الرهيب ان لا عودة الى الخلف . ان لا قوة في العالم تحول بينها وبين حريتها .

وكانما اصبحت بعد هذا القرار اقل توترا ، واكثر ارتخاء ، ولم تعد عضلاتها مشدودة ، وتركت جسدها ذائبا في الكون ، متحركا معه ، منسجما كنغم في لحن ،وخطواتها كايقاع راقص في رقصة جماعية ، وصوتها ليس هتافا وانما غناء ، والكون كله يغني معها :

« بلادي بلادي لك حبي وفؤادي » .

الصوت يخرج من صدرها كالأنفاس الساخنة ،وقلبها تحت ضلوعها يدق ، واحشاؤها تنبض ، واحزان قديمة

وهموم ثقيلة تفارق جسدها مع كل نفس ، وكل دقة ، وعيناها من شدة الفرح تدمعان ، ودموعها تسيل فوق خديها ، وتدخل انفها وفمها ، فتلعقها بلسانها وهي تضحك وتغني ، وغناؤها يتمزق بالبكاء والنشيج ولكنه لا ينقطع ولا يتوقف :

« بلادي بلادي بلادي لك حبي و ... »

وكلمة حبي تنسلخ عن صدرها كقطعة حية من لحمها ، كحفنة ساخنة من دمها ، تضغط على الكلمة بكل قوتها ، بكل عنفوان حياتها ، بكل رغبتها المكبوتة في الحب ، والانطلاق كالطائر الحر في السماء .

اهو الحب الذي جعلها قادرة على ادراك كل هذه الاحاسيس ؟ وادركت عن يقين انه الحب . الحب الحقيقي الذي يجعل الانسان قادرا على ان يحب كل شيء ، وكل الناس ، ويستطيع ان يفتح ذراعيه ويحتضن الارض والسماء والشجر ، وحين يفتح الانسان عينيه وينظر بين ذراعيه يرى انه يحتضن جسدا واحدا محددا ، يعرف ملامحه وحدوده الخارجية عن ظهر قلب ، ويستطيع ان يلتقطه من بين ملايين الاجساد السابحة في الكون ، ويميزه ، يميزه بكيانه الخاص وعينيه الخاصتين القادرتين على رؤيته والتقاطه من بين البشر .

ان مثل هذه اللحظات تبدو كالحلم . كل اللحظات السعيدة تبدو كالحلم . فقد افاقت على صوت طلقات الرصاص . وادركت ان هذا الصوت هو الصوت الحقيقي الذي بدأت تسمعه ، وبدأت تعود معه الى واقع حياتها ،

والى القيــود التي تربطها بالارض . وكلما دوت طلقــات الرصاص افاقت على الحقيقة ،ورات بعض الطلبة يسقطون على الارض ، وبعضهم يتقدم الى الامام مواجهــا الرصاص بصدره ، وبعضهم يحتمي بجدران البيــوت والدكاكين .

ظلت واقفة كالتمثال في مكانهــا ، شامخة بقامتهــا الطويلة وعينيهــا السوداوين المرفوعتين الى اعلى . لــو انطلقت رصاصة في المساحة المحددة التي يشغلها جسدها لسقطت على الفور ميتة . لكنها كانت تدرك انها لن تموت بغيــر ارادتها ،وهي لا تريــد الموت بعد ، ولكنها تريد ان تبكي ، وان الحزن هو الحقيقة الوحيدة في حياتها ، وانها حين كانت تضحك لم تكــن تضحك ، وحين كانت سعيــدة كانت تدرك في اعماقها البعيدة ان هذه السعادة ليست حقيقية ، وان شيئا ما يتهددها ، يتهــــدد حياتها ، ارادة اخرى تتربص بها ،في كل لحظة ، وفي كل ركن ، تنتهـــز الفرص لتنقض عليها ، ولا احد ينقذها ، لا ابوها ولا امهــا ولا اخوتها ولا احد على الاطلاق .

وفجاة ، وكانما انشقت الارض عنه ، رات وجهسليم . كان يشني فوق الارض ويحمل جسدا تنزف منه الدماء. وتلاشت الصور امــام عينيها ، ولم يبق الا ذلك الوجــــه بخطوط ملامحه المميزة وهو يجتاز الميدان ببطء ومن فوقه جسد اخر ، راسه مائل ، والدم الاحمــر يغــرق القميص الابيض ، ويسيل خلفهمــا راسما فوق الاسفلت شريطــا طويــلا احمر .

كالحالمة ، بين مصدقة وغير مصدقة ، كانت تجلس في الحجرة المجاورة لحجرة العمليات في مستشفى قصر العيني القديم . احداث كثيرة حدثت في وقت قصير جدا الى حد عدم التصديق ، لكن عيني سليم السوداوين الزرقاوين امامها تؤكدان وجودها ويقظتها ، وحين يغيب في الحجرة المجاورة تفقد الاشياء من حولها حقيقتها ووجودها وحين يقبل مرة اخرى وتلتقي عيونهما يسري في جسدها ذلك الاحساس العجيب بحقيقة الاشياء ، وحقيقة وجودها ، وتدرك ان هذه اللحظة هي عمرها الحقيقي ، وان الايام التي مضت والسنون لم تكن الا حلما او وهما .

احست في فمها طعم الحياة ساخنا لاسعا وقد امتزج برائحة الاثير النفاذة وصبغة اليود ، ورعشة محسوسة تحت ضلوعها ، ورجفة يدها حين تمسك شيئا ، ورجفة ساقيها حين تقف او تمشي ، رجفة الحياة الحقيقية ، مزيج من الخوف والاقدام ، الاحساس بالخطر والامان ، فقدان الاحساس بالزمان والمكان واكتساب قدرة عجيبة على الاحساس بالزمان والمكان . مزيج غريب من احاسيس متناقضة ذائبة كلها في وعاء واحد وفي انسجام كامل كالوان الطيف .

خيل اليها ان العالم كله يتحرك من اجل احداث هذا المزيج العجيب في جسدها ، وان الاضراب والمظاهرة

والهتاف والنشيد وطلقات الرصاص ، والاجسام التـــي سقطت ، والدم الاحمر الذي سال فوق الارض ، والراس النازف الذي ساعدت في حمله الى العربة ، وحجــــرة العمليات ، ورائحة الاثير وصبغة اليود ، والاطباء بمعاطفهم البيضاء ، والمرضات ببرانيطهن البيضاء ، كل ذلك حدث من اجل احداث ذلك المزيج المتناقض في جسدها .

من ينظر في عينيهــا في تلك اللحظــة يرَ حزنا عميقــا دفينا تعلوه سعادة غريبة طاغية،تبدو كالبريق الخاطف فوق سواد عينيها ، كالحركة السريعة ، كلفحة هواء ساخــن ، كانفاس طفل ينهث بالجري وراء كرة ، كرفرفة جنـــاح عصفور تحت اشعة الشمس . وسمعت صوت احد الاطباء يقـــول :

ـ مجدي مات .

صوته نفذ في اذنهــا كطلقة رصاص جديدة مزقت الشعرة بين اليقظة والحلم ، وبين الحياة والموت ، وادركت بوضوح ان سبعة من الطلبة ماتوا ، وان عددا اكبر اصيب بجراح ، وان عددا اخر حمل في العربات الى السجن ،وان مصر ليست حرة ، والقيود لا زالت باقية ، وعيون الاطفال لا زالت بجوار البركة جائعة ، وطوابيــر المرضى لا زالت واقفة في فناء المستشفى تبصق الدم ، والنسوة بملابسهن السوداء لا زلن يبكين وينتحبن ، وابوها في الصالة لا زال قابعا في كرسيه الاسيوطي ، والشرطي على ناصية الشارع لا زال من وراء الكشك الخشبي يتشمم رائحة الدم .

سقط راسها فوق صدرها كأنمــا نامت ، ويبدو انها

نامت فعلا ، لانهـا افاقت على صوت سليم ، وصوت سليم حين يناديهـا تبدو كل الاشياء كالحلم :

ـ بهيـة .

انتفضت من فوق الكرسي على صوت النـداء .. بهية .. ،من دون الاسماء كلها يتعرف على اسمهـا ، ومـن دون الوجوه كلها يتعرف على وجهها ، وبتلك الحركة الارادية الوحيدة يتجه نحوها ، وصوته المميز في اذنها : بهية ،انت متعبة ، وملابسك عليها دم . نظرت الى ملابسها ، ورات بقع الدم تلطخ صدرها واكمامها ، دم مجدي الذي تجمد في شرايينه منذ دقائق . وقال الطبيب فوزي :

ـ وانت يا سليم قميصك كله دم . تعالوا معنا الى بيت الاطباء ، وهناك يمكن ان نزيل البقع .

كان بيت الاطباء في القصر العيني الجديد ، فاجتازوا الكوبري الصغير الذي يفصل المستشفى القديم عن المستشفى الجديد . ومن بين قضبان الكوبري كان الماء يجري ،وقارب صغير جلس فيه فتى وفتاة يجدفان ويضحكان ويلوحـان لامراة شقراء تقف في شرفة قصر من قصور جاردن سيتي، وعلى باب المستشفى كان هناك الحشد المالوف ، وعربات الكارو تحمل البرتقال ، والوجـــوه الضامرة ، واجساد كالهياكل ، ونساء يحملن اطفالا لهم وجوه عجائز، وعجائز يسيرون باجسام صغيرة كاجسام الاطفال ، ونساء لهـن ملامح رجال ، ورجال لهم ملامح نساء ، وعلـى الاسفلـت بصاق دموي ، وبراز اطفال ، وكلاب جرباء جائعة تنبش في القمامة المبعثرة هنا وهناك .

ودوى من خلفهم بوق سيارة حاد ، وراوا العربة السوداء الطويلة داخلها اربعة وجوه سمينة وثماني عيون جاحظة . وهمس سليم :

ـ البوليس .

وتقدم نحوهم الرجل ذو الفم المدبب الممدود كفم الفأر قائلا :

ـ تعالوا معي .

ولم يتحرك احد منهم من مكانه فاحاط بهم ثلاثة رجال وساروا امامهم الى عربة كبيرة كالصندوق ، جوانبها الاربعة مغلقة ومظلمة من الداخل كالزنزانة المتحركة .

جاء مقعدها الى جوار شق صغير في جدار العربة ، كشق المفتاح في الباب ، رات من خلاله الشوارع المزدحمة بالناس ، والعربات ، والترام . كانت الشمس قد بدات تغرب وانوار الشوارع والبيوت والدكاكين بدأت تنتشر ، ومعها تنتشر تلك الحركة المصاحبة لقدوم الليل وخروج الناس للتنزه والسهر ، او للعمل في وردية الليل او لشراء حاجياتهم . عالم اخر تنظر اليه من خلال ثقب صغير في صندوق مغلق ، كالعالم المسحور الذي كانت تراه وهي طفلة من خلال الثقب في صندوق الدنيا ، اوجراب الحاوي .

واصبحت حركة الشوارع والناس امامها حركة غريبة ، منفصلة تماما عن العالم الذي اصبحت فيه ، والذي بدا لها لا يعرف شيئا اسمه طعام او شراب او نوم او بيوت او اباء او امهات ، او دكاكين او ناس تشتري ، او اطفال يولدون او عجائز يمتن ، او شوارع يمشي فيها الناس ، اوترامات

تسير فوق قضبان . وبدت لها حركة الناس وهم يسيرون حركة عبثية بلا معنى ، وخيل اليها أن هؤلاء الناس ميتون او انهم يعيشون في عالم فاتر بغير حرارة وبغير نبض . عالم الناس اصبح ميتا في نظرها ، والحياة كلها اصبحت متجمعة متركزة في تلك العربة ،او ذلك الصندوق المغلق، او بالتحديد ذلك المقعد الذي يشغله الجسم النحيل ومن فوقه الراس والملامح المحددة المرهقة المحملة بالهموم ، والعينين العميقتين بقدرتهما العجيبة على الروية والنفاذ الى حقيقة الاشياء .

توقفت العربة ، وانفتح باب الصندوق ، وجاء عدد من الرجال ساروا من امامهم ومن خلفهم ، ودخلوا معهم الى مبنى غريب ، ووجدت نفسها في حجرة ضيقة خالية : وانغلق الباب عليها وحدها . وظلت عيناها ثابتتين فوق الباب الموصد لا تريان شيئا الا الباب . حاجز كبير مصمت من الخشب الداكن السميك ، يحول بينها وبين سليم . يقف بينها وبين حياتها ، يمنعها من الحركة ، يشدها بعيدا عن ارادتها كذراعي امها الكبيرتين حين كانتا تشدانها ، وصوت ابيها حين ينهرها ، وصوت الترام وهو يزحف فوق القضبان ، وباب الكلية الحديدي ، والمشرحة بالمناضد الرخامية ومن فوقها اشلاء الجثث وسيقان الطلبة المعوجة وعيون الطالبات المنكسرة ، وعينا الدكتور علوي الزرقاوان بنهمهما الخفي .

بقبضة يدها القوية تضرب الباب الخشبي ، وبقدمها اليمنى ، واليسرى ، تضرب الباب السميك المصمت ، بكل جسدها تضربه ، لكن جسدها يرتد عنه ويرتطم بالجدار ثم يرتد عن الجدار ويرتطم بالباب كالذي يضرب رأسه ليكسر الحائط ، فيبقى الحائط وينكسر الرأس . لكن رأسها لا يتكسر . لا شيء فيها يتكسر . وجسدها الطويل يظل ممدودا فوق الارض ، يشغل المساحة بين الجدار والباب ، ومن تحته تنساب خيوط رفيعة من الدماء ، من تحت انفها واذنيها، ومن بين اصابع يديها وقدميها ، ويفتح الشرطي الباب ، انفه يتشمم رائحة الدم ، وعيناه تتلصصان ، تصوب اليهما عينيها السوداوين فيطرق الى الارض بحركة مستسلمة ككل رجال الشرطة ، يقاومها بحركة اخرى متغطرسة ويشد عضلات ظهره وعنقه ، وتجحظ عيناه كالمشنوق ، والسوط يتدلى من بين اصابعه الغليظة المشققة كاصابع الجلاد .

كل شيء من حولها يبدو مالوفا . كانه حدث من قبل مرة او مرتين ، والالم في جسدها احسته من قبل ، وتلك البقع الحمراء فوق الارض ، بل هذا الشرطي ذاته، والعينان، والانف ، والسوط ، والجدار ، والبقع الحمراء ، والباب ، وكل شيء يتكرر ، وكانما تستطيع ان تعرف ما الذي سيحدث في الغد ، والورقة البيضاء تخفيها تحت البرش ، كما كانت تخفيها عن عيني ابيها ، وحينما يختفي السجان تخرج

الورقة ، وتنظر في خطوطها المميزة ، تعرف خطوطها كما تعرف ملامحها ، وبتلك الحركة الارادية القوية تحرك الفرشاة فوق الصفحة البيضاء ، وكل الاشياء تتخذ شكلا جديدا ، والوانا جديدة ، او بعبارة اخرى الوانها الحقيقية . وتصبح عيناها قادرتين على اكتشاف ان ورق الاشجار ليس اخضر ، والسماء ليس لونها ازرق ، والجدار ليس رماديا ، بل انه ليس مصمتا ايضا ، بل هو شفاف كستارة من حرير ، جسدها يخترقه بسهولة ، وهي تشعر بقوة خارقة ، حقيقية وليست وهمية ، لها كثافة مادية ملموسة ، تحسها باصابعها متينة مرنة كالمطاط ، لا تنكسر وانما تنثني فحسب تحت الضغط الشديد ، تدرك بها ان جسدها لا يمكن ان ينسحب من الحياة، ويظل قلبها يدق بتلك الضربات العالية كالقهقهات، ويصبح للاشياء الوان زاهية ، والبقع الحمراء فوق الارض تصبح متوهجة وضاءة كقرص الشمس ، والنجوم تسطع بضوء قوي كضوء القمر ، واخضرار الشجر يصبح ازرق داكنا ، وكل ورقة لها خيوط ونسيج بارز كالاسنان المثرثرة، يحركها الهواء بذبذبة غير مرئية كحركة الزمن ، ويصبح الماضي كالحاضر كالمستقبل ، والامس كاليوم كالغد ، يصبح الزمن بغير زمن ، وهذه حقيقة رائعة لا يكتشفها الانسان الا في زنزانة السجن .

هذا الاكتشاف او هذا الادراك هو السبب الحقيقي وراء تلك النشوة العجيبة التي كانت تطل من عينيها السوداوين ، والتي كانت تجعل جسدها النازف يتراقص برشاقة نادرة ، يداعب اسراب البق النشطة فوق البرش .

وهي مقدرة خارقة للعادة ، لا يكتسبهـا الجسم الا حين يتخلص من وعيه الانساني المزيف ويصبح بوعيه الحقيقي .

حين اطل الحارس براسه من الباب دهش . كـانت بهية تفرد ذراعها وتتحسس باصبعها عروقها النافرة المنتفخة، وحينما تحس دورة الدم في جسدها تضحك ، فـالانسـان منذ آلاف السنين يحاول عن طريق دورة الدم في جسده ان يعرف الكون ، وتنظر بهية الى الشرطي بعينيها السوداوين ، تدرك عن يقين ان الكون يدور مع دورة الدم في جسدها ، وان هذا الدوران بالذات هو ما يفزع رجال الشرطة ، ويشل تفكيرهم ، خاصة اذا كان الدوران شديدا الى حد ان يبدو السطح املس ساكنا كسطح الارض ، مع ان لونه احمـر وردي كلون الدم ، ويمشي ببطء اشبه بالكبرياء في العروق الزرقاء تحت الجلد .

سالها الشرطي بصوته الحاد الانثوي :

ـ انت بهية شاهين .

اجـابت على الفور وهـي لا تزال تضحك وعينـاها مرفوعتان الى اعلى بشموخهما العادي :

ـ لا .

حملق فيها الشرطي بعينين جاحظتين :

ـ اتكذبين ؟

وضحكت وهي تطرقع اصابع يديها فصفعها على وجهها، فانساب الخيط الرفيع الاحمر من فمها وانفها ، لكن عينيها السوداوين ظلتا مرفوعتين الى اعلى ، وانفها له ارتفاعة حادة تشق الكون امامها نصفين ، وحين سارت الى جوار الشرطي

بدت ساقاها في البنطلون الاسود طويلتين ، عضلاتهما مشدودة ، وعظامهما مستقيمة ، تدب بكل قدم على حدة فوق الارض ، وتفصل بين ساقيها بثقة . وحين وصلت الى الحجرة الفسيحة المزدحمة بالاجسام وقفت وقفتها المألوفة، اتكأت بقدمها اليمنى فوق الارض ، ورفعت قدمها اليسرى عالية في الهواء ، ثم وضعتها فوق الحاجز الخشبي الذي بينها وبين ضابط يجلس من خلف مكتب صغير .

فتح الضابط دفترا كبيرا بحجم المكتب ورن صوته في الحجرة مناديا :

ـ بهية شاهين .

ادركت انه ينادي واحدة اخرى فلم ترد . لكنه نادى مرة ثانية بصوت عال :

ـ بهية شاهين .

وتلفتت حولها تبحث في الوجوه عن واحدة اسمها بهية شاهين . لم تتعرف على وجهها بين وجوه النساء الواقفات والجالسات فوق الارض . ورنت في الحجرة ضحكة انثوية ممطوطة تبعتها ضحكات كركرت مصحوبة بطرقعات اللبان ومصمصات الشفاه ، ورائحة عرق ونتانة امتزجت برائحة عطر نفاذ كصبغة اليود ، ووجوه بعضها سمين مكتظ باللحم وبعضها ناحل ممصوص ، الجلد فوق العظم، والكحل الاسود ساح من الحر حول العينين فاصبح كشنبر اسود لنظارة بيضاء ، والجسد السمين المترهل يترجرج تحت الفستان الحريري الضيق ، برجرجة البروزات والانبعاجات بالاثداء والارداف ، والجسد الناحل كعود الذرة الجاف

بعير بدين ولا ردفين ، والاقدام الانثوية الصغيرة تطل من الشباشب المفتوحة باظافرها الطويلة الحمراء وكعوبها المشققة المسودة بالطين .

وقالت واحدة من الضامرات :

ـ اين بهية شاهين ؟

وردت واحدة من السمينات :

ـ انا اسمي بهية الشربتلي .

ـ اهلا وسهلا يا اختي .

ـ اهلا بك .

ـ متى يتوب علينا ربنا ؟

ـ ربنا راضي عنا كل الرضا .

ـ والنبي يا اختي .

ـ طبعا . نحن زين النساء .

ـ رددت الروح في جسدي يا اختي .

ـ لولانا لمات الازواج الشرفاء ، وانهارت البيوت المحترمة .

ـ ولكنهم يتأففون من رائحتنا .

ـ لانها رائحتهم الحقيقية .

ـ ويضعوننا في السجن .

ـ لاننا نعرف شكل عوراتهم .

ـ ويخافون منا الى حد الموت .

ـ ويرغبوننا الى حد الموت .

ورنت الضحكات المطوطة وطرقعات الشباشب واللبان ، وفاحت رائحة النتانة ذات العطر النفاذ ، وخبط

الضابط بيده فوق المكتب أنكالح كمنضدة المطبخ وصاح غاضبا :

ـ سكوت يا غجر ! أليس عندكم حياء ؟

وكركرت واحدة بضحكة طويلة :

ـ حياء ايه يا شاويش ؟ اصحاب الحياء ماتوا .

وغمز لها الرجل بحاجبه قائلا :

ـ صدقت والله .

ثم رمقها بعينين متوعدتين تلمعان بالشهوة .

انفرجت شفتا بهية عن ابتسامة سرعان ما تقلصت حين رأت اباها امامها ، وكأنما انشقت الارض عنه . رمقها ابوها بنظرة حادة متوعدة ، واجاب على اسئلة الضابط ، ووقع بامضائه (على شكل شخبطة) على المحضر ، ودفع غرامة عشرة جنيهات قبل ان يتسلم ابنته .

ركبت التاكسي ، وجلست ، عن يمينها جلس ابوها ، وعن يسارها عمها . وانغلقت ابواب العربة وانطلقت بها ، كالمقبوض عليها بسلطة اخرى تشبه سلطة البوليس ، وابوها من ناحية وعمها من الناحية الاخرى كرجلي الشرطة ، ووجهاهما من الجانب جامدان صامتان ، وعيناهما شاخصة الى الامام ، لا يلتفتان ناحيتها ، تماما كشرطيين غريبين عنهما ، يسوقانها الى المقصلة او الى الزنزانة .

اجتمع رجال العائلة الكبيرة ، وجلسوا حول المائدة يلتهمون الفراخ المحشية . وبعد الغداء جلسوا في الصالة يدخنون ، ويسلكون اسنانهم من اللحم باعواد الخلة وقد ارتفع بطن الواحد منهم فوق فخذيه كالمرأة الحامل ، وملأت

البناه السمينتان المترهلتان المقعد الاسيوطي الكبير .ويتجشأ الواحد منهم بصوت عال ثم يتنحنح ويقول بصوت خشن رزين (ليس هو صوته الحقيقي) :

ـ انا رايي ان نخرجها من الجامعة . الجامعة مفسدة لاخلاق البنــات .

ويرد الاخــر :

انا رايي ان نزوجها باسرع ما يمكن ، فالزواج هــو الحصن المنيع لاخلاق البنت .

ورد اخر : انا رايي ان نفعل الاثنين معا . بعبارة اخرى نخرجها ونزوجها ، والعريس موجود .

انها في قبضة القدر ، والاصابع التي تقبض عليها حديدية كالقضبان لا ترتخي والمسافة بين القضيب والقضيب لا تكفي لان تخرج راسها . القدر هو ابوها . يملكها كما يملك ملابسه الداخلية . يعلمها او لا يعلمها فهو الذي يدفع مصاريف الكلية . يزوجها او لا يزوجها فهو الوكيل عنها مع انها لم توكله .

المؤامرة اصبحت تحاك ضدها ، بتكتم وسرية ، تسمع الهمس ، وترى النظرات في العيون ، وتدرك الخطر القريب وتفكر في وسيلة للنجاة .

وفي منتصف الليل حين تسمع شخير ابيها تتسلل من فراشها وترتدي ملابس الخروج ، وتجلس على حافة السرير تفكر الى اين تذهب ، في مثل هذا الوقت ، الى اين يمكن ان تذهب فتاة مثلها في الثامنة عشرة ؟.

لم تكن تحس انها فتاة ، او انها في الثامنة عشرة . هذه السن في ذلك الوقت كانت تسمى سن المراهقة . والمراهقة كلمة مشبوهة مريبة ، ما ان ترن في الجو حتى يرتعد الاباء والامهات برغبة جنسية مكبوتة ، يرفقونها بتكشيرة حادة ، ويلوحون لابنائهم وبناتهم باصابع مهددة فترمقهم عيون الناس بنظرات الريبة ، اما الاباء والامهات فينساقون وراء غرائزهم دون ان يرتاب فيهم احد .

كانت تدرك انهم لن يفسروا هروبهــا من البيت الا تفسيرا جنسيا ، مع انهــا في ذلكالوقت لم تكن لهــا رغبة جنسية (علاقتها بسليم كانت شيئا اخر) . منذ ذلك اليوم الذي ضربتها امها على يدها (كانت في الثالثة من العمر)وهي تشعر بانقباض اذا ما رأت اعضاء ولد او بنت . وحين تلمح اعضاءها في الحمام صدفة تبعد عينيها بسرعة . بمعنى اخر لم تكــن تدرك انها انثى ، وسليم في نظرها لم يكن ذكرا . كانت ترى في عينيه صورة نفسها الحقيقية ، وحركتها اليه تؤكــد حريتها وارادتها ، وحين تكون معه تضيع رغبتها في الطعام ، وتضيع شهوتها الجنسية ، وتصبح انسانا جديدا بغير غرائز وبغير تلك الشهوات المعروفة ، وانمــا هي شهوة جديدة عارمة بغير اسم . شهوة الى ان يكون الانسان نفسه الحقيقية ، ان يدوس بارادته على الارادات الاخرى ، ويمزق شهــادة ميــلاده ،ويغير اسمه ، ويغير اباه وامــه ، ويضع اصبعه في عيون كل الذيــن خدعوه وكذبوا عليه ، ولايستثنى من ذلك عينيه فيخرقهما ويصنع لنفسه عينين جديدتين .

كانت تعرف ان عينيها تكذبـــان وتخفيان رغبتها الجنسية . لكنهــا لم تكــن تخفيها بارادتها . كانت تتقلص وحدها رغم انفها ، وتحس بها وهي تنسحب منها ، كالروح تنسحب وحدها من الجسد . وفيبعض اللحظات ، حيــن كانت تحس حاجتها اليها ،وتحاول ان تستحضرها (كمـــا تستحضر الارواح) فلا تحضر ، وتظل بعيدة عنها ، كالـــروح الهائمــة محلقــة فوق راسها ، ولا تستقر ابدا في جسدها، لا زال صراخ اختهــا فوزيــة في اذنيها ، وبركة الدم مــن

تحتها حمراء قانية ،وفي كل يوم تنتظر دورهـا ، والبـاب يفتح وتدخل ام محمد بالموسى الحادة لتقطع ذلـك الشيء الصغير بيـن فخذيها . لكـن ام محمد ماتت وانتقل ابوها الى القاهرة وظل الشيء الصغير في جسدها .

احيانا كانت تخاف منه ، وتظـن انه شيء ضار وجد خطأ او نسي في جسدها . وتود لو صحت أم محمد مـن قبرها وجاءت بموساها ، لكـن صورة اختهـا فوزية تتراءى امامها ، وهي تمشي الى دورة المياه تعرج وتتأوه ،وبعد أن التأم الجرح لم تعـد تجري كما كانت ، وخطواتها اصبحت بطيئة ، وساقاها حين تمشي تظلان ملتصقتين لا تكاد الساق تنفصل عن الساق .

واصبحت تكره اليوم الذي تستحم فيه ، وحين تخلع ملابسـها تصوب نحـو اعضائها نظرة كراهية ، بل انها كرهت الله لانه هو الذي خلقها ، وكانت قد سمعت من ابيها مرة ان الله هـو الذي خلق اجسامنا واعضاءنا . وذات يوم قالت لامها انها تكره الله فشهقت امها وضربتها على وجهها قائلة : كيف تقولين هذا ؟.

وردت وهي تبكي : لانه يخلق اشياء سيئة .

فضربتها مرة اخرى وهي تقول : ان الله لا يخلق الا الاشيـاء الجميلة .

فقالت وهي تمسح دموعها : فمن اذن الذي خلق تلـك الاعضاء السيئة ؟!

وحملقت امها في وجهها بعينين متسعتين ولم ترد ، وسمعتهـا في تلك الليلة تهمس في اذن ابيها : هذه البنت

غيـر طبيعيــة !

لم تكن تعرف بعد ما هو الطبيعي ، وتصورت انالرغبة الجنسية غير طبيعية ، فاصبحت تتقزز حين تلمح اعضــاء الرجال بارزة من تحت سراويلهم ، وتشعر برغبة في القيء حين يدس الواحد منهم كوعه في صدرهـا وهي واقفة في الترام . كانت تكرههم ، وتكره سراويلهم ، واعضاءهم القبيحة البارزة ، وعيونهم المدببة النهمة ، وروائحتهم التي يختلط فيها البصل بالتبغ ، وشواربهم الكثة التي تبدو فوق شفاههــم كالحشرات السوداء الميتة .

كانت تعرف ان اباها رجل فاصبحت كراهيتها لــه مزدوجة ، وحين كان ينقطع شخيره في الليل لحظة تتخيل انه مات ، ولم تكـن تحب امها ايضا ، ولا النساء ولا اثوابهن المفتوحة عند الصدر ،تكشف عن نهدين منتفخين برغبة مكبوتة ، وعيونهن المكحلة كالجواري تتأجج بالشبق ، لكن سيقانهـن السمينة الملتصقـة وعيونهـن المتكسرة تفضح برودهــن الجنسي الى الابــد .

ومع ذلك كانوا يسمونها مراهقة ، وحين كانت تقف في الشرفــة لتستمتع باشعة الشمس يتصور ابوها انها تـطل على الجار الاصلع ، وحين تتأخر ، او تشرد ، او ترسم ، او تفكر ، او تستحم ، او تنظر في المرآة ، فالسبب واحـد ، وهو الرجل . وقد ادركت من بعد ان رؤوس الاباء والامهات لا يشغلهــا الا الجنس ولهذا يتصورون ان ابناءهم وبناتهم علـى شاكلتهـم .

في حفل عائلي كبير طرقعت فيه الصاجات،وترجرجت اجساد الراقصات ، وجحظت عيــون الرجال بالشهوة ، وامتلأت البطون بالطعام والشراب ، باعوها لرجل من الرجال مقابل ثلاثمائة جنيه . وسط الزهور والانوار كان وجهها يطل على العالم شاحبا ، وامها تزغرد بذلك الصوت الحاد الذي يتقطع قرب النهاية كالنشيج المكتوم . وابوها يسير مختالا بالبدلة الجديدة يتحسس من حين الى حين الجيب الداخلي، حيث ترقد المحفظة المنتفخة بالمهر ، والاطفال يجرون ويلعبون لكــن عيونهم ترمق العروس فيتحسسون اعضاءهم من تحت ملابسهم في وجل وخوف ، والرجال بسراويلهم وسيقانهــم المعوجة يروحون ويجيئون مختالين بذكورة مترهلة نهمـــة كالمعدة المريضة ، والنساء بفساتينهن اللامعة وعيونهن المنحلة من فوقهــا سحابة تخفي ذكرى زفاف اليم .

الفستان الحريري الابيض ، ضيق عند الصدر يخنق ثدييهــا ، ويلتف عند الردفين وحول ساقيها عدةلفات وثنيات كالكفن ، ويجرجر على الارض في ذيل طويل ، تتعثر فيــه قدماها المتارجحتان فوق كعب عال رفيع ، تسير نحـــو « الكوشة » المحاطة بباقات الورد كقبر الجندي المجهول ، ودقات الطبول في اذنيهــا بطيئة ثقيلة كــدقات اللحـــن الجنائزي ، ويدها الصغيرة الباردة في يد « العريس » الكبيرة، اصابعه الغريبة حول اصابعها تلتف كاصابع القدر ، وساقاها من تحت لفائف الكفن تتحركان ببطء كأنمــا تسير نحو كارثة مجهــولة ، وعيناها السوداوان مفتوحتان شاخصتان الــى الامــام ، ثابتتان في الفضاء على لا شيء .

كالصفعة القوية الحادة سمعت الباب وهـــو يغلق ، والاصوات كلهـا انقطعت ، والصور ، ووجدت نفسها تجلس داخل عربة كعربات البوليس ، عن يمينها رجل (ابوها) وعن يسارهـا رجل (العريس)، وجهاهما من الجانب مشدودان، وعضلاتهمـا مشدودة ، وعيناهما شاخصة الى الامامتراقبها خلسة كعيون رجال البوليس .

وعند باب الشقة الجديدة تسلم العريس الوديعة من الاب ، وانتقلت ملكيـة بهيـة شاهيـن من محمد شاهين الى محمد ياسين . لكن احدا من الرجلين لم يكن يدرك بعد انها ليست بهية شاهين وبالتالي لا يمكن ان تصبح بهية ياسين .

هي الوحيدة التي كانت تعرف ، وحين انغلق الباب عليهمـا رفعت عينيها السوداوين المقتحمتين ورات الشارب الاسود تعلوه نقطة بيضاء بلون المخاط ، وشعر الصدرالكث الاسود تتخلله حبات عرق ، وغابة الشعر اسفل بطنه ، وتلك القفزة فوق السرير كقفـزة قـرد، ضحكت بصوت عال ، فاتسعت عيناه في دهشة . سارت بخطوات بطيئة نحـو الدولاب وفتحته فاندهشت هي الاخرى . قمصان النـوم العارية من الصدر والظهر والبطن ، والملابس الداخلية ذات الكرانيش والمخرمات والدنتلا ، وزجاجـات عطر ، وعلـب مساحيق بيضاء ، وخضراء ، وحمـراء ، وفرش للرموش ، وشباشب منبعجة الى اعلى ومن فوقها وردة حمراء ، وفوط حمام ، وصابون تواليت ، وبودرة ازالة الشعر ، ومعجـون ازالة الرائحة ، وزيوت دهان وتدليك .

ادوات المراة في حياتها الزوجية . كلها ادواتجنسية .

تنتقل الفتاة من بيت ابيهـا الى بيت زوجها فتتحول بقدرة قادر من مخلوق لا جنسي (بغير اعضاء جنسية) الى مخلوق جنسي ينام ويصحو ويأكل ويشرب الجنس . يظنون ببلاهـة غريبة ان الاعضاء التي بترت بالموسى يمكن ان تعود ، او ان الرغبة التي ذبحت وماتت وشبعت موتا يمكن ان تصحو .

ابتسم لنفسه في زهو ، وادرك انه تمنع الفتاة العذراء الجاهلة بالرجل . استمد من جهلها ثقته بنفسه فسار امامها عاريـا يتبختر مستعرضا رجولته . ضحكت مرة اخرى ، فاشتعل الدم في عروقه بعدوانية الذكـر ، وانقض عليهـا كالوحش المفترس . رفسته بقدمها في بطنه فسقط علـى الارض . فرك عينيه في دهشة وعدم تصديق . هذه القدم القوية لا يمكـن ان تكون قدم انثى . قدم الانثى كما عهدها (من تجاربه مع المومسات) قدم صغيرة لينة ، يستطيع ان يلويهـا بيد واحدة . اما هذه القدم فصلبة قوية كالقذيفة .

قال لنفسه الزوجة غير المومس ، وادرك ان تمنع العذراء يزيد ويشتد بمقدار طهارتهـا وجهلها بالرجل . تضاعف زهوه وتأكد انه الفازي الاول ، واطمأن الى انهـا لن تكتشف ضعفه فانقض عليهـا بوحشية اشد ، فرفسته بقوة اشد .

بعقل الازواج البطيء بدأ يدرك انها ترفضه ، فاتسعت عيناه في ذعـر وصاح بصوت غاضب :

ــ كيف ترفضين ؟

ردت بغضب اشد :

ــ لست مومسا .

قال بصوت المالك :

ـ انت زوجتـــي .
سالت بدهشـة :
ـ من قال لك هذا ؟
ـ ابوك وانا والمأذون .
صاحت بغضب :
ـ احط صفقة في التاريخ !.

صفعها على وجهها فضحكت . ادركـــت ان الناس يغضبون حين نشد الغطاء عن عوراتهم . كان عاريا ،وعورته سوداء قبيحة ، رمقتها بنظرة متقززة .

اخفى نصفه الاسفل تحت الملاءة في خجل ، كخجـل العذراوات ليلة الزفاف (بسبب فقدان الثقة في النفس)، لكنه تذكر انه رجل ، والرجل لا يخجل ، فشد عنه الملاءة ونظر اليها ، فلم تهتز عيناها السوداوان المرفوعتان الى اعلى .

صاح بغضب :
ـ انت لست انثى

الاتهام التقليدي ، يلقي به الرجل في وجه المراة ، يظن ان الارض من تحتها تهتز ، وان شيئا لا يبقى لديها . فماذا يبقى للمراة (في رايهم) اذا لم تكن تقدس عورة الرجل ؟

هزت كتفيها بحركة لا مبالية وقالت :
ـ من قال لك انني انثى ؟
قال بغضب :
ـ ابوك خدعني اذن .
ضحكت :
ـ عليك ان تسترد منه الثمن .

قال :

ـ انـه نصاب !

قالت :

ـ كان عليك ان تفحص البقرة قبل شرائها !

كالباحثة عن الفضيحة ، فالفضيحة وحدها هي التي تنقذها ،هي التي تجعل الجميع يلفظونها ، وهـــي تريد ان تلفظ ،ان تصبح بغير اب وبغير ام وبغيــر اسرة تظللها او تحميها . فالحماية انما هي الخطر ذاته . انه الاعتداء على حقيقتها ، واغتصاب ارادتها ووجودها .

ظلت جالسة في مقعدها ، ورأته يشد الملاءة فوقه وينام، وارتفع شخيره بعـد فتــرة ، فأدركت ان شخير الازواج كشخير الاباء ، وتسللت على اطراف اصابعها الى الشارع ، وحينما رات خيوط الفجر الاحمر في الافق ، تذكرت ان هذا الصباح هو « الصبيحة » ، وان الفضيحة تنتظر اسرتها،وان اباها سيقبل ـ يتشمم رائحة الـــدم ، وتفتش امها ملاءة السرير وقميص النوم ، وينتشر افراد الاسرة فــي بيــت العرس يبحثون بلا جدوى عن شرفهم غير الموجود .

بقدمين ثابتتين سارت في الشارع ، ترتدي بلوزتهـــا البيضاء وبنطلونهـــا الاسود ، تدب بقدمها على الارض بقوة، وتفصل بيـــن ساقيهـــا بثقة ، خطواتها واسعـــة سريعـــة كخطوات الشاب الرياضي ، وحذاؤها منخفض بغير كعب ، وشعرهـــا الاسود القصير متناثر فوق اذنيها وعنقها مـــن الخلف ، وعيناها السوداوان شديدتا السواد ومرفوعتان الى اعلى ، وانفها المرتفع الحاد يشق الكون بغير رفق ولا تردد، وشفتاها مزمومتان في اصرار كالغضب او غضب كالاصرار. حيـــن بلغت شارع القصر العيني ادركت انها تعرف هدفها .

لمحت احدى زميلاتها تهبط مـــن التـــرام فتراجعت واختفت وراء الجدار ، راقبت جموع الطلبة والطالبات وهم يهبطون من الترام او الاتوبيس ويسيرون نحو الكلية . حين هدأ الشارع وابتلعت الكليـــة الطلبة والطالبات خرجت مـــن وراء الجدار وسارت حول سور الكلية ، تنظر من خـــلال القضبان الحديدية الى باب المشرحة ، والباب المجاور لاتزال تعلوه اللوحة البيضاء تحمل اسمهـــا ، ورؤوس الطلبـــــة والطالبات تتحرك من وراء نوافذ المدرجات والمشرحة .

بهيـــة شاهيـــن !

رن الصوت من خلفها فانتفضت . رات امامها وجه احد زملائها . تذكرت اسمه . كان هو رؤوف قدري .

سالها : ـــ كيف حال الكليـــة ؟

قالت : ـــ لم اعد بالكلية .

سال : ـــ انت ايضا فصلوك ؟

سالت : ـــ وهل فصل احد ؟

قال : ـ فصل اربعة وانا خامسهم .
قالت : ـ وانا فصلت ، ولكن بسلطة اخرى .
ضحك : ـ تعددت السلطات والفصل واحد .
سألت : ـ والدكتور فوزي ؟
قال : ـ كما هو في المستشفى .

اجتازت الكوبري الصغير بين المستشفى القديم والجديد ، رأت من خلال قضبان الكوبري القارب المزركش والفتى والفتاة يجدفان ويلوحان للمرأة الواقفة في شرفة القصر ، مرت من جوارها سيارة سوداء طويلة كسيارات البوليس ، تبعتها سيارة اسعاف ، شقت ببوقها الحاد الزحام الواقف امام باب المستشفى ، وطوابير من رجال بوجوه شاحبة ، ونساء بجلاليب سوداء ، واطفال بعيون جاحظة ، وتجار البرتقال بعرباتهم الكارو ، وقطط وكلاب تجري هنا وهناك بين اكوام القمامة .

دخلت فناء المستشفى الجديد الواسع ، اصطفت فيه عربات اساتذة الكلية والاطباء ، كالسفن الطويلة الراسية في الميناء ، او الطيارات القابعة فوق ارض المطار ، ظهرها المقوس يلمع تحت اشعة الشمس كالفولاذ ، ورأسها مدبب حاد كبوز المدفع ، ومؤخرتها طويلة ناعمة كذيل ثعبان ، داست بقدمها بقوة فوق الارض ، كأنما تدوس على كل الذيول الناعمة ، وكل الرؤوس المدببة الحادة ، وكل الاساتذة والاطباء بسياراتهم اللامعة الطويلة ، وبطونهم البارزة من الامام ، وارادفهم المترهلة من الخلف ، ومقاعدهم الجلدية الوثيرة ، واسمائهم المعلقة فوق اليفط في الشوارع والميادين ،

والشهادات التي رشقوها بالدبابيس فوق ظهورهم ، ورائحة الدم وعرق المرضى تفوح من الاوراق المالية المكومة فيجيوبهم المنتفخة .

اتجهت نحو العيادة الخارجية ، ولمحت راس الدكتور فوزي يطل من وراء طابور الاجساد الضامرة كالهياكل ، يتساند الجسد فوق الجسد ، وبمشقة تنتصب الساقان الرفيعتان المعوجتان ، وبمشقة اشد ينتصب الراس فوق العنق ، والعيون غائرة والافواه مفتوحة تلهث ، والرائحة العفنة كرائحة الجسد الميت .

شقت طريقها وسط الاجساد لتصل الى الدكتور فوزي . ان كلمة شقت هنا غير صحيحة ،اذ الحقيقة انها لم تكن تلمس الجسد منهم حتى يترنح ، او يستند الى الجدار ، او يتهاوى على الجسد الاخر ، والعيون الصفراء تلتفت نحوها بصعوبة ، وتتطلع اليها كأنما من وراءسحابة، او من عالم اخر ، وبذهول كذهول الغيبوبة يدركون انهم واقفون في الطابور .

رأت الدكتور فوزيجالسا عند رأس الطابور ، السماعة المعدنية حول رقبته كحبل المشنقة ، والقلم في يده يجريفوق الورق باسماء الامزجة (روائد وصودا او حديد وزرنيخ)، والعرق الغزير يتصبب من جبهته ، وصوته يرن بين الانفاس اللاهثة والحشرجات والسعال ، خذ نفس ! اكتم نفسك ! قول آه ! قول واحد اثنين ثلاثة اربعة ! مد ايدك ! مد رجلك! شد حيلك !.

رآها الدكتور فوزي وهي واقفة ، فترك مقعده واتجه

نحوهـا باسمـا :
ـ اهلا بهية . . . كنت اريد ان اتصل بك لاطمئن عليك، لكني لم اعرف عنوانك . هل انت بخير ؟
قالت بصوت هاديء : لا .
التقت عيناهما في لحظة صمت طويلة .
ثم سألته : ـ ما اخبار سليم ؟
قال : ـ نقلوه من سجن مصر الى سجن طره .
سألت : والزيارة ؟
قال : ممنوعة حتى بالنسبة لامه .
قالت : سمعت انهم افرجوا عن بعض الطلبة .
قال : ربما ،ولكن امثال سليم لن يخرجوا الان .
سألت : ومتى يخرجون ؟
قال : لا احد يعرف ، وقد يمتد بهم الحال سنين .
صاحت : سنيـن ؟!
قال بحزن : سنين طويلة لا يعرف عددها احد .
صافحته باصابع مرتعدة وجرت الى الشارع . رات الناس سائريـن الى اعمالهم او الى بيوتهم كأي يوم عادي كأن شيئا لم يحدث ، كأن شيئا خطيرا لم يحدث . مـع ان اخطر شيء حدث ،اخطر شيء ويمكن ان يحدث حدث ، ولا احد يدري ، ولا احد يهتم ، وسارت كالتائهة في الشارع ، وحيـن وصلت الى سور الكلية رات من خلال النوافذرؤوس الطلبة والطالبات وهم منكفئون فوق الجثث . كمـا كانت تراهم في اي يوم عادي ، وكأن شيئا لم يحدث . ضغطت على اسنانها في غيظ ،وخبطت الارض بقدميها،ما اقبح الحياة العادية

بعد الحادث الجلل ، ما افظع استمرار الحياة اللامبالـــي ، والسماء تبقى معلقة فوق ، والارض تظل ممدودة تحت ، والسحب تتحرك حركتها العادية المحايدة، والناس يسيرون في الشوارع سيرهم اليومي اللامبالي . لماذا لا يتوقف هذا العبــث ؟ خبطت الارض بقدمها مرة اخرى . لماذا لا تكف هذه الحركة اللامباليــة عن الدوران الساحق ؟ لماذا لايتوقف الناس لحظة ، ويرفعون رؤوسهم ويرون السلاسل الحديدية الملتفة حول اعناقهم ؟

بهيـــة !

سمعت الصوت من خلفهــا فانتفضت . ورأت وجهــا يطل من سيارة طويلة سوداء كسيارات البوليس . تذكرته على الفور . انه الدكتور علوي . هبط من العربة بسرعةواتجه نحوها . سألها بلهفة :

ــ بهية ! اين انت كل هذه المدة ؟

سكتت ولم ترد . شدها من يدها نحو العربة :

ــ تعالي معي . أريد ان اتحدث معك .

كان الوقت ظهرا ، والشمس قوية تدخل من نافــذة العربة تحسها فوق ذراعها ساخنة ، وقالت لنفسها :« سنين طويلة لا يعرف عددها احد » . ورفعت عينيها نحــو السماء بنظرة شاردة تائهة في خضم بلا حدود . هذا الزمن غيــــر المحدد ، غير المعروف ، كعمرنا ،حين نجهل اليوم الذي نموت فيه ، ونظــن بطريقــة ساذجة انه لن يأتي ابــدا ،أو نحس بسذاجة اشد انه آت في كل لحظة وفي كل وقت . هــذه المأساة غير المحدودة ،اللانهائية ، نعيشها ، ونحملهــا فــوق

اجسادنـــا كالعبء الابدي .

لو قال لها انه سيخرج بعد خمس سنوات او عشر او عشرين ربمـــا خفت المأساة . ربما استطاعت ان تحتمل . فالانتظار محتمل طالمـــا انه موقوت ،ندرك نهايته ونعرفها ، ونستطيع ان نحددها بسن القلم . ولكـــن ان نعيش في قبضة خطين متوازيين لا يلتقيان ، ان نصبح داخل فكين لا نـــدري متى ينقبضان ، فهذه هي مأساتنا ،وسر الحزن العميق في افراحنا ، وسر المرح اللامبالي في احزاننا ، نعرف انناانخدع انفسنا ، واننـــا في قبضـــة ارادة اخرى غير ارادتنا ،وانها ستفتك بنـــا لا شك في لحظـــة قادمة لا نعرف متى .

احست والعربة منطلقة باقصى سرعتها انها في قبضة القدر ، وان انحرافة واحدة من السيارة تجعلها جثة مهشمة في قاع الخيل . والتفتت ناحيته . وادركت انها ليست في قبضة القدر ، وانمـــا في قبضة هاتين اليدين الكبيرتيـــن اللتيـــن تقبضان على عجلة القيادة . ان حركة واحدة مـــن هاتيـــن اليديـــن كافية لان تسحقها والعربة .

اجتاحها احساس غريب باللامبالاة . وانحرفت السيارة فجأة وكادت تصطدم بعربة اخرى فلم تهتز . اللامبالاة الحقيقية حين يدرك الانسان عبث حياته اللاارادية ، وعبث موته غير الموقوت ، وعبث ربطه بالسلاسل الى اجل غير محـــدد . اللامبالاة الحقيقية حين يتأكد الانسان من موته في اي لحظة فلمـــاذا لا تكـــون هذه اللحظة وليست غيرها ؟

وسمعت صوت الدكتور علوي يقول :

— اود ان اتناول غدائي معك اليوم ، فهل توافقين ؟

قالها بأدب شديد وتردد شديد فدهشت . لو قال لها في تلـك اللحظة : « اود ان القى بك في قاع النيل فهـل توافقين ؟ لقالت له اوافق . لكنه يدعوها للغداء فحسب . وبدت لها الدعوة للغداء الى جوار الدعوة للموت تافهة فقالت بصـوت فاتـر :

ـ اوافـق .

انطلق بالسيارة في طريق طويل تظلله الاشجار . لـم تكن تعرف من القاهرة الا اجزاء قليلة ، واحست انها فيمكان لم تره من قبل . لكنهـا لم تسأل . وظلت صامتة ، تاركـة نفسها لذلك الشعور المريح من اللامبالاة ، وسمعته يقول :

ـ لماذا تركت الكلية ؟

ردت بصوت ساخر :

ـ زوجونـي .

ضحك ومد يده وامسك يدها :

ـ اهي نكته ؟

قالت : ليست نكتة ،انها الحقيقه .

اتسعت عيناه في دهشة مصطنعة :

ـ وماذا فعلت بـه ؟

قالت بهدوء : ـ هربت .

ضحك مرة اخرى :

ـ ستطلبين في بيت الطاعة .

ضحكت وحركت وجهها ناحية الشمس . رأى عينيهـا السوداوين مرفوعتين ، وانفها مرتفعـا حادا ، وشفتيهـا مزمومتين . سألها :

ــ وكيف ستعيشين ؟

هزت شعرها القصير المتناثر وقالت :

ــ ساعمل واعيش .

قال : سيبحثون عنك في كل مكان .

قالت بثقــة : لن يجدوني .

قال : الاختفاء في بلد كالقاهرة صعب ،ثم ان عيونهم كثيرة ، وكل السلطات ضدك .

رمقت الشارع بنظرة حذرة ، والتفتت ناحيته بعينين فاحصتين وقالت :

ــ وانت ايضا ضدي ، اليس كذلك ؟

ابتسم وقال : ــ كان من المكــــن ان اكــون ضدك ، لكنني احبــك .

رنت الكلمة في اذنها غريبة « احبك »، انفرجت شفتاها لتسال :« ماذا تعني ؟ » لكنهــا اطبقت شفتيها في صمت . وتوقفت السيارة امام بيت صغير من حوله حديقة . اخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب . وجدت نفسها فــي صالــه كبيرة جدرانها مغطاة بالورق الملون ، والستائر ورديــــة ، والمدفاة فوقها تمثال لامراة زنجية عارية ، ولوحة فــــوق الجدار لامراة راقدة عارية . تلفتت حولها فــي دهشه . ابتسم قائــلا :

ــ اشقى طول النهار في الكلية والمستشفى والعيــادة من اجل لحظات سعيدة في مخبأي هذا .

خلع الجاكتة ففاحت رائحة الاوراق المالية من الجيب الداخلي ، كرائحة المستشفى : مزيج من الد[illegible] العرق والانفاس

اللاهثة المريضة . حركت راسها الناحية الاخرى ، فناولهـا كاسا وهو يقول :
ـ هذا نبيذ مصري يسمونه « عمر الخيام » . انـه احسن نبيذ في العالم . ما رايك ؟
ردت بصوت فاتر :
ـ لا اعرف ، فأنا لم اذق لا النبيذ المصري ولا غيـر المصري .
نظر في عينيها السوداوين الحزينتين ثم قال :
ـ لي فلسـفة خاصة في الحياة، وهي ان اعيش الحياة يوما بيوم ، لا افكر في الامس ، ولا في الغد . وعليك منـذ الان ان تفعلي مثلي .
قالت بهدوء :
ـ لي فلسـفة اخرى
ضحك بصوت عال :
ـ المراة الجميلة لا تحتاج الى فلسـفة .
لم تضحك . مد يده وامسك يدها ولثمها :
ـ بهية ، انا احبك ، الا تعرفين معنى الحب ؟
ردت بصوت واضح : لا .
حوطها بذراعيه وضغط بصدره على صدرها ،واحست دقات قلبه سريعة ، وبيده اليسرى امسك يديها الاثنتين، وباليد اليمنى بدأ يفك ازرار ثوبها . دفعته بقدمها القويـة فسقط على الارض . نهض وهو يحملق فيها بدهشة .كانت دهشتها اشد . جلس على مقعد بجوار المدفاة واطرق لحظة ثم قـال :

ـ يبدو انني اخطات . كنت اظن انك تحبينني .
ردت بدهشة :
ـ من اين اتاك هذا الظن ؟
قال بلهجة الاستاذ :
ـ انا افهم المراة .
سالت : ـ وبأي عقل تفهمها ؟
فأشار باصبعه نحو راسه وقال باسما :
ـ الرجل له عقل واحد في رأسه . الم اعلمك ذلـك في المشرحــة ؟
ردت بصوت ساخـر :
ـ المشرحة شيء والحقيقة شيء اخر .
قال : ـ ما هي الحقيقة ؟
قالت : ـ عقل الرجل ليس في رأسه .
سالها : وأين يكـون ؟
ردت بجراة : ـ بين ساقيه !
فارتدى الجاكتة وهو يقول :
ـ انت فتاة غير طبيعية .
قالت وهي تبتسم :
ـ وانت رجل عـادي .

دبت بقدمها على الارض بزهو « فتاة غير طبيعية » ، ومن هي الفتاة الطبيعية في نظرهم ؟ التـي تنظر بعينيـن منكسرتين ، التي تمشي بساقين ملتصقتين،المطيعة،الخاضعة، المبتورة الاعضاء الجنسية ، المنقوعة في الدهانات والمساحيق الفواحة بالعطر ، المشبعة ليل نهار بتأوهات الاغاني وافلام الجنس ، الحافظة عن ظهر قلب قصص الغرام والعشـق، والعاجزة عن ان تخوض تجربة واحدة ، المفيفة الطاهـرة العذراء والمنشغلة طول عمرها بنتف شعرها واغراء الذكر .

سارت بخطواتها الواسعة السريعـة ، تتلفت يمينـا ويسارا . تتفحص وجوه الناس . كان الشارع مزدحما بهم . ووجوههم كلها متشابهة ،وحركاتهم متشابهة ، واصواتهـم متشابهة ، وعيونهم حين تنظر اليها لا تراها . واحست انها تغرق في بحر دون ان يراها احد ،ودون أن يميزها احـد ، وأن وجهها اصبح كوجه علية او زكية او نجية او ايفون .

جرت بغير وعي نحو شارع المقطم ، عيناها تبحثان في الارض والشجر والسماء عن العينين القادرتين على رؤيتها، عن الوجه النحيل والملامح المرهقة المحملة بهموم البشر،نادت بصوت عال : « سليم ! » لكـن الجبل ابتلع الصوت والصدى. رددت مرة اخرى بصوت عال : « سليم ! » لم يرد عليها احد، لكنها لم تستدر لتعود . كانت تدرك انه موجود . كالسماء

والهواء والشمس والقمر والافلاك . ظاهرة من ظواهر الكون. تتنفسه في كل وقت ، وتحس ملمسه فوق جسدها وهي سائرة او جالسة او نائمة ، وحين تحملق في السماء ترى في زرقتها عينيه ، وفي كل قوس مرفوع حاد ترى انفه ، وفي كل خطوة تدب بها على الارض تسمع وقع قدميه . وكادت ستدير خلفها لتراه ، لكنها لم تستدر . كانت تعرف انه غير موجود ، وان السماء خالية منه ، والارض فارغة من البشر ، والكون اجوف كالصندوق الفارغ ، افرغت منه الهواء مضخة خرافية .

بهية ! رن صوته من خلفها فانتفضت . لم تجد احدا. شدت قامتها بقوة . في هذه الحركة القوية ادركت انها ستذهب اليه ، وانها ستفني حياتها من اجل الذهاب اليه، وان شيئا لن يحول بينها وبينه ،لا الموت ولا طلقات الرصاص ولا الدم ينزف ، ولا المشرط الحاد يقطع اللحم ، ولا الباب الحديدي العالي ولا القفل .

سارت بخطوات سريعة واسعة كأنما تعرف هدفها . لكنها توقفت بعد لحظات . لم تعرف الى اين هي ذاهبة . وحينما تلفتت حولها لمحت رأس ابيها من وراء زجاج نافذة تاكسي ، والى جواره راس عمها ، وراس ثالث غريب برز امامها من خلال ضباب كثيف فتذكرت ليلة زفافها . اختفت وراء جدار وهي تلهث . فمرق التاكسي بالرؤوس الثلاثة في بحر العربات وابتلعه الخضم . خرجت من وراء الجدار وسارت في الشارع بساقيها القويتين المشدودتين ، ووقع قدميها في اذنيها تعرفه ، القدم وراء القدم ، تدب بهما

على الارض ، تتحدى الارض ، ترفع قدمـــا الى اعلى ثم تهوى على الارض ، كأنهـــا ستخرق الارض ، وتتحدى العالم كلـــه من حولها ، من يقترب منهـــا تستطيع ان تقذفه بقدمها ،ومن يلمسهـــا او يحرك الهواء من حولهـــا تستطيع ان تدب اصابعها في عينيه ، ومن يقف في طريقهـــا تستطيع ان تشق بطنـــــه بمشرطها وتقتله . اجل تقتله . كانت قادرة في تلك اللحظة على اقتراف اي جريمة قتل ،بل ان شيئا لم يكـــن يخمد النار المتاججة في نفسها الا جريمة قتل .

الساعة الثالثة صباحا ، تلك الساعة التي تسبق ظهور اول خيوط الفجر ، والظلام يخيم على الحواري الطينية الضيقة ، والبيوت القديمة المتلاصقة المتساندة بعضها فوق بعض كهياكل الاجساد المريضة ، وانفاس حي الدراسة المزدحم في الحجرات الضيقة تهب من شقوق النوافذ ساخنة محملة بتراب الجبل ورائحة العرق والبصل والكشري والسمك المقلي ، والحي الذي يضج في النهار كخلية النحل مستغرق في النوم ، نوم الاجساد المكدودة المهددوة يكاد يشبه الموت ، والصمت لا يمزقه من حين الى حين الا نباح كلب ، او صراخ رضيع ، او عواء قط .

في تلك الساعة تكون الحركة على اشدها داخل الحجرة في بدروم البيت القديم ، وتروس المطبعة الصغيرة تضغط الحروف السوداء فوق الصفحة البيضاء ، وحين تمتلىء الصفحة تنقلب وتسحب التروس ورقة جديدة ، سرعان ما تمتلىء بالسطور السوداء ، فتنقلب وتظهر على الفور مكانها الورقة الجديدة البيضاء ، والوجوه الثلاثة النحيلة مرهقة شاحبة ، والعيون الست شاخصة تتابع حركة الورق الدائرية ، ترتفع بينها عينان سوداوان الى اعلى ، ارتفاعتهما مألوفة ، وسوادهما شديد ، والانف مرتفع حاد يشق الكون نصفين ، والشفتان مزمومتان في اصرار وغضب .

بهية ! يرن الصوت في اذنيها ، فتتلفت حولها ،وترى رؤوف يرص الورق في الحقيبة الجلدية ، وفوزي يضـــع المطبعــة داخل تجويف في ارض الحجرة ، وتعــود الارض مستوية كمــا كانت بالواح الخشب . ويئن في الصمت صوت الباب الخشبي الصغير وهو يفتح،وتدلف منــــه الاجسام الثلاثة ، واحد بعد الاخر ، لا يمكــن التعرف عليها من بينهم، فالظلام يخفي الوجه ، وملامح الجسد في الظلمة متشابهة ، والساقان داخل البنطلون عضلاتهما قوية مشدودة ، واليد اليمنى تتدلى منها حقيبة جلدية منتفخة .

وفي الميدان الصغير ينحرف رؤوف الى اليمين ويبتلعه الشارع المظلم ، ويستمر فوزي متجها الى الميدان الكبير ، اما بهيــة فتسير بخطواتها الواسعــة السريعة نحو الاتوبيس الراقد في الموقف ، صدرهــا يعلو ويهبط ، وانفاسها لاهثة تتقطع ، والحقيبة الجلدية المنتفخة فوق صدرها ، تحوطهــا بذراعيها كذراعي الام تلتفان حول طفلها ،وفي المحطة تهبط ، تعرف هدفها ،وتعرف اين تقذف بالحروف الملتهبة فــوق الرؤوس ، ايهــا الناس استيقظوا ، افتحـــوا النوافذ ، وافتحوا عيونكم وانظروا السلاسل الملتفة حول اعناقكـــم وافتحوا اذهانكم واعلموا ان عرق جبينكم يسلب ، وزرعكم ينهب ، ولحمكم يؤكل ، ولا يبقى لكم الا العظام ، هياكـــل عظمية متراصة في الطوابير ، يسند الواحد الاخر ،والانفاس تتمزق بسعال متقطع ، والدم احمر ينزف من جرح غائر في الصــدر .

تقذف بالحروف والكلمات في الوجوه ، وتعودبالحقيقة

فارغــة ، متخففة من العبء ، تقفز فوق الارض كعصفور ، وتدندن لنفسها باغنية قديمة وبحركـــة الاطفال الفرحيـــن بالعودة من المدرسة تهز حقيبتها الفارغة ، وتقذفها فـــي الهواء ، ثم تلتقطهـا بيديها الاثنتين ، وتلمـح الرجـــل ذا العينين المتجسستين قادما بمشيته الحذرة ، فترمقه بنظرة جانبية ، وحين تحس به وهـــو يتعقبها تدخل فـــي طريـــق اخر ، وتضلله ثم تخرج الى الشارع الواسع ، يبتلعها الزحام كالمحيط ، وتسير في الشارع بعينيها المرفوعتين ، ترقب الناس وهم يدورون في طاحونة حياتهم اليومية من اجـــل لقمة العيش ، والترام بسلمه المائل تحت الاجساد يصلصل صارخا بالعبء ،وتدور عجلاته الحديدية فاغرة فاها لاي قدم تسقط . وعلى الرصيف تجلس العجوز العمياء باسطة يدها المعروقة الى الامام ، واطفال يتطلعون الى العالم بعيون صفراء فاغرين افواههم لاي لقمة تسقط ، ومن نوافذالترام والاتوبيس تلمح الرؤوس المتشابهة والاعناق المشنوقة باربطة العنق والعيون الجاحظة المذعورة ، والتمتمات الخافتـــة بآيات الكرسي والنفاثات في العقد . ومن حين الى حيـــن تمرق سيارة طويلة سوداء كسيارة البوليس ومـــن خلفه الزجاج اللامع تلمح الوجوه السمينة المكتظة باللحم بعيونها الضيقـــة المتلصصة .

حين يهبط الظلام تعود بخطواتها الواسعة السريعة الى حجرتهـــا الصغيرة فوق السطح، تسمع صـــوت انفاسهـــا اللاهثة كنشيج متقطع ، وخيوط العرق تجري فوق وجهها وتحت ابطها ، تغلق الباب من خلفها بالذراع الحديدية،وتحكم

اغلاق النوافذ ، وتتمدد فوق السرير الصاج الصغير تحملق في الظلام . يبرز امامها الوجه النحيل المرهـق ، والعينان السوداوان الزرقاوان القادرتان على رؤيتها ، تهتف بصوت خافت :« سليم ! » لكن احدا لا يرد . تدرك انهـا وحدهـا فتنهض وتشد اللوحة من تحت السرير ، تسندهـا الـى الجدار ، وتلتف اصابعها حول الفرشاة تضغط عليها، وتحس للضغط لذة غامضـة تمتد من اصابعها الى ذراعها الى عنقها الى رأسهـا كأنمـا خلال سلك كهربي مشدود .

ان من يراها وهي جالسة في الظلام في تلـك اللحظـة يندهش . عضلات جسدها مشدودة كالمصلوبة ، وعيناهـا السوداوان ثابتتان فوق خطوطها ، وراسها فوق عنقها ثابت، وذراعها ثابتة ، واصابعها حول الفرشاة ثابتة ، وساقـاهـا وقدماهـا ثابتة كتمثال من الجرانيت .

كم من الوقت يمضي وهي على هذا الحال . لا احـد يدري . قد ينقضي الليل كله وهي جالسة لا تتحرك ،لاتضيف خطا واحدا الى اللوخة ، لكن عينيها لا تتحولان عن خطوطها، تعيش حياتها مرة اخرى ، وتشهد لحظات عمرهـا وهي تمر امام عينيهـا لحظـة بعد لحظة ، كشريط سينمائي .

وقرب الفجر ، تمتد يدها بالفرشاة ، تحركها فـوق اللوحة ، تغير الخطوط وتصنع في حياتها لحظات اخرى، لحظات جديدة هي التي تصنعها بارادتها ، بتلـك الحركـة الارادية فوق الورق ، في اي اتجاه وفي كل الاتجاهات،حركة قوية حرة ، تحطم بها الارادات الاخرى ، وتصنع بنفسهـا خطوط حياتها ،وشكل ملامحها ، وتجعل عينيها اكثر سوادا،

وانفهـا اكثر حدة وارتفاعا ، وشفتيها مزمومتين في غضب او اصرار اشـد .

حين تشعر بالتعب ، تترك جسدها يسقط ، ويستلقى ممدودا فوق السريـر الصاج . يرتجف مـن البرد تحت البطانية البالية الوحيدة ، تشدها فوق راسها ومـن حـول قدميها المثلجتين ، وتصطك اسنانها ، بذلك الصوت المتقطع الخافت كصوصوة عصفور وليد سقط من عش امه في ارض عراء ينتفض الانتفاضـات السريعـة ، وعيناه الصغيرتـان الدامعتان تلمعـان في الظلام بالنظرة اليتيمة المذعورة .

وجرت الدمعة الساخنة من زاوية عينها فوق الوسادة ، احست رطوبتها الدافئة تحت خدها واطلت براسها من تحت الغطاء لترى امها ، الوجه الطويل النحيل كوجهها ، والعينان السوداوان الواسعتان ، والصدر ذو الدفء السخي . دفنت راسها في صدر امها تتشممها ، وتبحث في جسدها عن فتحة او تجويف يحتويها ، تكمن فيه بعيدا عـن العالم ، بعيدا عن القوى المتربصة بها ، تقبع كالجنين الامن ، وحنين غريب عنيف للامـان يرج جسدها ، حنين للتكور داخل الرحم . داخل الطمأنينة . داخل السكون بغير صوت وبغير حركة . والتفت ذراعا امها الكبيرتان حولها بقوة غريبة ، تشدانها اليها مـرة اخرى ، وبكل قوتهـا تحاول ان تجعـل جسديهما شيئـا واحدا ، بلا جدوى ، فالانفصال الابدي حدث فـي لحظـة مضت ولن تعود .

بهية ! رن الصوت في اذنيها ففتحت عينيها . لم تجد احدا ، وضوء الشمس ينفذ من شيش النافذة المتآكـل .

وسمعت الطرقات البطيئة التي تأتيها كل صباح من وراء الباب ، ورات الشيخ العجوز بعمامته وقفطانه ، والعينين الرماديتين ذاب سوادهما في بياضهما ، والاصابع الغليظة السمراء من حول السبحة الصفراء تتحرك بسرعة وانتظام كالرعشة الدائمة ، تماثلها رعشة اخرى في شفتيه الرفيعتين الصفراوين ، تهسهس وتبسمل وتبسبس بكلمات مبتورة وحروف لا يسمع منها الا حرف السين طويلا وممتدا كأنه صفير يصاحب الشهيق والزفير .

حين رآها اتسعت الفرجة بين شفتيه الجافتين وظهرت اطراف اسنانه الصفراء المتآكلة ، وهمس بصوت كفحيح ثعبان نائم : « هل صحيت ؟ » .

ردت بصوت ضجر : لأ . واغلقت الباب . سمعت انفاسه تهسهس من خلف الباب . في زمجرة خافتة، ذكر عجوز ذبح الدخان صدره ، ونزف عمره في فراش اربع زوجات باردات عفيفات انجبت كل واحدة منهن عددا من الاولاد والبنات ،مات نصفهم وتزوج النصف الاخر ، ولم يبق معه من زوجاته الا امراة عجوز تتسند على الجدران ، وتصنع له الشاي اسود ، وتعد الجوزة في المساء ، وعلى السرير الخشبي الكالح يرقد الى جوارها ، ويدس اصابعه الغليظة بين ثدييها المترهلين ، ويهتز جسداهما الضامران اهتزازات واهية ، وانفاسهما الباردة ذات الرائحة الراكدة تلفحها نفحة دفء خافتة ،سرعان ما تتلاشى كحشرجة الاحتضار الاخير ، وتتركهما فوق السرير الخشبي العتيق كالجثتين الهامدتين .

تلف اللوحة بالورق ، وتدلف من الباب الخشبي الصغير بجسمها الطويل المشوق ، وساقيها المشدودتين داخل البنطلون ، وتسير في الحارة، القدم تدب وراء القدم والساق تنفصل عن الساق بمسافة كبيرة مرئية ، تحملق فيها عيون رجال الحارة في الدكاكين ، وعيون النسوة من فرجات الابواب وشقوق النوافذ . امراة هي ام رجل ؟ لولا النهدان الصغيران النافران تحت البلوزة لاقسموا انها رجل . وما دامت هي امراة فقد اصبحت الحملقة مشروعة ، واصبح جسدها نهبا للعيون الجائعة المحرومة ، يبحلقون ،ويتهامسون ويتجرأ احدهم فيضحك شاهقا بصوت داعر ، ويعلق اخر بلفظ نابي ، ويتشجع اطفال الحارة فيجرون وراءها ، يتراقصون باردافهم ،ويكشف الصبيان منهم عن عوراتهم ، ويقذف احدهم بحجر من خلفها ، ويضع الاخر يده في فمه ويصفر صفارة طويلة ، ويقهقه الرجال الجالسون على المقهى باصوات مبحوحة ويخبطون افخاذ بعضهم البعض بكفوف خشنة مشققة كالارض الظماى ،وتضرب النسوة على صدورهن المتهدلة من خلف النوافذ شاهقات بتلك البحة الانثوية المكبوتة الى الابد : شوفوا الخوجايا !.

تشق طريقها بين النظرات والضجيج والتعليقات النابية ، ترفع عينيها السوداوين الى اعلى ، وتزم شفتيها في غضب يتحدى القدر . وحين يختفي جسدها في الشارع الواسع تعود الحارة الى حياتها الطبيعية ، وترتفع طلقات الحديد من دكان السمكري ، وطرقعات الاكواب والطاولة في المقهى ، وصياح الاطفال والصبية وشجار النسوة من

وراء الشفوف ، واصوات الرجال الخشنة تقسم بـاغلظ الايمان وبالطلاق بالثلاثة ، وتتصاعد رائحـة السمك المقلي والفلافل والكشرى ، وتتراقص حبات السبحة بين اصابـع الشيخ العجوز ، ويفترش سجادة الصلاة امام النافذة، وحين يركع يحتك جسده بصوف السجادة فتجتاحه الرغبة المكبوتة، وتظل عيناه المتآكلتان على الحارة تترقبان ظهور اي جسد ملفوف .

حين اصبحت فـي الشارع الواسع احست بضربـة الهواء البـارد على خديها الساخنتين كالصفعة المفاجئـة ، تقلصت عضلات وجهها وسرى في جسمها ذلـك الاحساس الغريب بالقرب من الخطر . رمقت الشرطي الواقف بطرف عين ثم دخلت الى المحل الصغير . نزعت الورق عن اللوحة، وابتسم الرجل العجوز كعادته حين يتأمل لوحاتها ، ودس يده المعروقة في جيبه واخرج ثلاثة جنيهات ، عدها واحدا واحدا ، ثم ناولها لها وهو يعدهـا مرة اخرى واحدا بعـد الاخر .

خرجت الى الشارع ، فادركت على الفور ان عينـين ترقبانها ، وان قدمين تتبعان قدميها . تسللت الى انفهـا رائحة المخبز ، فدخلت والتهمت قطعة الكعك التي تحبها . وقفت امام الخزينة لتدفع فلمحت العينين الضيقتين مـن خلفها في المرآة المواجهة . خرجت الى الشارع . حركـت يدها لتنادي تاكسيا ورمقت الساعة فوق معصمهـا . وقف التاكسي امامها فركبت . عند ثنية الشارع التفتت الـى الخلف فرات العينين الضيقتين خلفها داخل تاكسي. هبطت

في ميدان العتبة . كانت تعرف ان رؤوف وفوزي ينتظرانها في ذلك البدروم ، لكنها لم تذهب . ظلت تتجول في شارع الموسكي ، تراقب النساء والفتيات وهن يسرن بسيقانهن السمينة الملتصقة ، يرجمن الشارع باجسادهن واردافهن البارزة من تحت الفساتين اللامعة ، وعيونهن المكحلة ترمق الفترينات بنظرات مسعورة ، ونهم لشراء الملابس، وقمصان النوم العارية ، والشباشب المفتوحة ، وادوات الزينة ، والعطور ودهانات البشرة ، واصواتهن الحادة ترن من الدكاكين ، وطرقعات اللبان ، وشهقات الاعجاب بالمودلات الجديدة ، وقعقعات الكعوب العالية المدببة تحت الاجساد المحملة بلفائف المشتريات من كل لون وصنف .

تزم بهية شفتيها في غضب ، فالرغبة النهمة للاستهلاك تعويض عن الحرمان الابدي ، والعيون المتأججة بالشبق من تحتها برود كالصقيع ، والشعور المتموجة كالحرير من تحتها مخ املس كمخ الارنب لا يعرف من الحياة الا الاكل والتناسل .

خرجت الى الشارع الواسع حين بدات الشمس تغرب . واكتست السماء والارض والبيوت والاشجار بحمرة شاحبة يزداد شحوبها لحظة بعد لحظة كوجه يضيع منه الدم في احتضار طويل بطيء . ثم اضاءت مصابيح الشارع، وانعكست مئات من دوائر الضوء الابيض على الاسفلت وفاترينات المحلات وزجاج العربات ووجوه الناس ، وتالق كل شيء في النور الابيض ، وسمعت صوت ضحكة ناعمة ورات فتاة تتأبط ذراع شاب ، وذراعه الاخرى تحوطها . ابتسمت لهما وسرى في جسدها المرهق احساس مفاجيء بالنشاط . ملأت

صدرها بهواء الليل الرطـب ، ولمعت عيناهـا السوداوان كفصين من الماس ، تراقبان في سرور الاطفال كوى النـور المعلقة فوق المحلات كالبالونات الملونة ، والعربات تجري فوق الاسفلت اللامع ، وزجاج النوافذ يبرق كالمرايا ، والنـاس بملابسهم الزاهية يتحركون في الضوء الابيض كـأسراب من الغزلان ، واطلق طفل صاروخا صغيرا تطاير في الجو كملايين الذرات اللامعة الملونة .

سمعت صوت ضحكتها ترن في اذنيها كضحكتها وهي طفلة ، وكادت تقفز فوق الارض قفزات الاطفال ، لكنها رأت العينين الضيقتين امامها . استدارت فرأت عينيـن اخريين تراقبانها ، انحرفت الى الشارع الجانبي عن يمينها فـاذا بالعينين تسدان عليها الطريق ، اتجهت بسرعة الى الحارة ناحية اليسار فبرز لها من الظلمة جسد الشرطـي السمين بازراره اللامعة والسلاح المدبب يتدلى من حزامه الجلدي .

توقفت . تلفتت حولها بحركة سريعة . تلك الحركـة حين يصبح الانسان مهددا ، وقوى معلومة ومجهولة تتربص به ، تنتهز الفرص لتقضي عليه . هذه الحركة السريعة في العينين ، في كل الاتجاهات ، تبحث عن اليد التي ستطعن من الخلف او من الامام او من الجانب الايسر او الايمن، وهذه الحركة الدائبة في الراس ، كل خلية في الراس تتحرك ، تفكر ، كيف ينجو الانسان من الخطر المتربص ، كيف يحمي جسده من الطعنات ، ويحمله بعيدا في حذر ، هذه الانقباضة الحذرة في العضلات ، هذه الدقة القلقة في الصدر ، دقة الدم الصاعد الهابط ، تلك الحركة السريعة المنتظمة ابدا ،

دقة القلق ، ومعها دقة الاحساس بالحياة واصابعها الطويلة الرفيعة ترتعش ، رعشة سريعة غير مرئية ، وقدماها ثابتتان فوق الارض ، وخطوط جسدها ثابتة ، ذلك الثبات القوي ، ثبات الارض تحت قدميها ، لكن تحت هذا الثبات حركة سريعة محسوسة ، كذبذبات الهواء في الاذن ، وذبذبات الدم تحت جدران الشرايين ، ذبذبة سريعة تبدو من الخارج ساكنة ، ولكن تحت هذا السكون تختفي الحركة العنيفة المروعة ، حركة الصراع بين المقاومة والاستسلام ، الحركة الوحيدة التي يدرك بها الانسان الفرق بين حياته وموته . لحظة رهيبة ، وبقدر ما ترهبها تعشقها ، وبقدر ما تهرب منها تسعى اليها ، فهي اللحظة الوحيدة التي تدرك فيها انها حية حقيقية ، والاحساس بالحياة لا يحدث الا في مواجهة الموت ، كالابيض لا يكون ابيض الا في مواجهة الاسود .

انفرجت شفتاها عن ابتسامة ، ولمعت عيناها بالبريق ، فهذه اللحظة هي هدفها ، كانت تريدها من البداية ، وتسير نحوها بثبات واصرار ، تدرك انها لا تسير الا الى الخطر ، حافة الخطر ، تلك المساحة الصغيرة التي لا تتسع الا لقدم واحدة ، معلقة في الفضاء ، من فوقها السماء ومن تحتها الهاوية السحيقة ، ويصبح الانسان مشدودا بين قوتين رهيبتين ، قوة تشده للسقوط في القاع ، وقوة تشده للانطلاق في السماء .

عن يقين كانت تعرف انها لن تسقط في القاع . لن تستسلم . لن تكون بهية شاهين ، ولن تعود الى الوجوه العادية ، ولن تغرق في بحر الاجساد المتشابهة او تسقط في

قبر الايام العادية .

رفعت عينيها السوداوين الى اعلى ، وشدت عضلات ظهرها وساقيها ، وتقدمت نحوهم بخطوتها الواسعة، تدب كل قدم على حدة فوق الارض ، وتفصل بين ساقيها بثقة وحرية . حين اصبحت امامهم وجها لوجه قالت بصوتها الهادىء الواثق :

ــ هيا بنا .

تقدم نحوها احدهم ، ووضع الحديد حول معصميها وقفله بمفتاح وضعه في جيبه . سارت امامهم بخطوات سريعة ، عيناها تسبقان قدميها تبحثان بين الوجوه عن الوجه النحيل والملامح المرهقة المحملة بهموم البشر، والعينين القادرتين على التقاط وجهها من بين الوجوه وانتشال جسدها من بين ملايين الاجساد السابحة في الكون .

وحين راته امامها صاحت بصوت فرح كصوت الاطفال :

ــ سليم !.

ومدت ذراعيها لتلتفا حوله ، لكن ذراعيها لم تمتدا ، وارتعشت يداها من تحت الحلقة الحديدية المغلقة ..

مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي

من منشورات دار الآداب

* امرأتان في امرأة
* موت الرجل الوحيد على الأرض
* امرأة عند نقطة الصفر
* الأغنية الدائرية
* موت معالي الوزير سابقاً
* الخيط وعين الحياة
* الغائب
* كانت هي الأضعف
* مذكرات طبيبة
* تعلمت الحب
* حنان قليل
* لحظة صدق
* جنات وإبليس

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت